كتاب الأولياء

حكي صوفي

علي حمدي

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي
ALKANZY

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

إشراف عام
صبرينة غلمي

الطبعة الأولى
الكتاب : الأولياء
تأليف : على حمدي
تصنيف الكتاب : حكي صوفي
مصمم الغلاف : أحمد المهدي
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٨٩٤١ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6599 - 84 - 0

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى روح أبى ...

وإلى أبى الروحى ...

إلى أمى وأولادى وزوجتى ... نعمة الله على

إلى أخوتى ... أدام الله جمعنا

إلى أصدقائى الذين لم يتخلوا عنى لحظة

إلى كل من يقرأ هذا الكتاب

أتمنى أن أكون عند حسن الظن

المعجزة والكرامة لا يفترقان

إن أعظم الكرامات هي الاستقامة على شرع الله تعالى

إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم

يا من يجيب دعا المضـــطر في الظـــلـــم يا كاشف الضر والبلوى مع السقم.

قـد نـام وفـــدك حـول البيـت وانتبهـوا وعـين جـودك يـا قيـوم لم تنـم.

هـب لي بجـودك فضـل العفـو عن زلـلٍ يا مـن إليه رجـاء الخلـق في الحرم.

إن كان عفـوك لا يرجـوه ذو خـطـــأ فمـن يجـود عـلى العاصين بالنعم.

الفصل الأول

أولياء الله

الحكاية الأولى

(عمر)

في ليلة غاب القمر فيها عن سماء المدينة المنورة فساد الظلام حالكاً لا ينتهكه سوى ضوء خافت من النجوم البعيدة ... ورغم برودة الجو القارصة في تلك الصحراء، كان الخليفة ينام على حصير جاف في مدخل بيته .. الكل من حوله غافين إلا هو .

فمذ مات أبو بكر وهو لا يكاد ينام ،عقله دائماً يعمل دون كلل .. يفكر في كل شيء .. كل ما يدور بين المسلمين .. وكل ما تتطلبه مسئوليات الخلافة .

تقلب في نومته قلقا ...

- «آهٍ من الخلافة يا (عمر).. الناس ينامون في بيوتهم وهم يعلمون أن ورائهم خليفة يحمى ظهورهم الكل يأتمنك على نفسه وماله وولده والله ينظر لما تصنع».
- والله لتتقِ الله يا ابن الخطاب، أو ليعذبنك، ثمّ لا يبالي بك.

قالها بصوت عالٍ وقام ليمشي بين البيوت الساكنة سكون النائمين خلف جدرانها يتمتم بذكر الله وعندها رآه (أسلم) خادمه الأمين الذي كان يرافقه في كل مكان يذهب إليه فهب ليتبعه .. فهو لا ينام إلا أن ينام (عمر).

كان (أســـلم) قريبا من (عمر) يعلم ما يحمله صدر سيده ... يعلم أنه يحمل على كاهله ما لا يطيق بشـــر .. فنومه قلق .. ويقظته عمل لا ينتهـــي .. لا يكاد يطمئن لأمر حتى يقلقه آخر .

اقترب (اســـلم) من سيده الذي يسير شارداً مثقل الذهن رطب اللسان بالذكر .. ثم قال وهو يحاول أن يهون عليه من أمره شـــيئاً:

- هـــون عليك يا أمير المؤمنين إن الله أعلم بما تعمل والله انك لتكادُ تهلك من أجل الناس .

التفت إليه عمر - مُنتزعاً من أفكاره بما سمع - وقال موبخاً :

- إذا كان العمل مجهدة فإن الفراغ مفسدة يا (أسلم) .

أومأ (أسلم) موافقاً ولكن قال مجادلاً :

- ولكن هي الدنيا .. ساعة وســـاعة يا أمير المؤمنين وأنت لا تفرغ من أمر حتى تُشغل بغيره .

توقف (عمر) عن سيره فجأة وعلا صوته في غبش اللَّيل وهو يقول :

- اسمع يا (أسلم) لعلها تكون المنجية، أغمض عن الدُنيا عينكَ، وولِّ عنها قلبَك، وإيّـــاك أن تُهلكك كمَا أهلكَت من كان قَبلك، فقد رأيتُ مصارعها، وعاينتُ ســـوء آثارها علـــى أهلها، وكيف عَري مَن كَسَـــت، وجَاع مَن أطعمت، ومات مَن أحيت، والله لو ماتت شاه على شـــط الفرات ضائعة لظننت أن الله تعالى سائلي عنها يوم القيامة، وأعلم إن أشـــقى الولاة من شقيت به رعيته .

نظر له (أسلم) مشدوهاً وحدق فيه وهو يقول في إجلال :

- كثيراً ما أسائلُ نفسي .. تُرى من أي الرجال صنعت يا أمير المؤمنين ؟!.

فنظر (عمر) إلى السماء وهو يقول في خشوع :

- اللهم أشكو إليك جَلد الفاجر، وعجز الثقة ...

ثم تابعا سيرهما و(أسلم) يحادثه من آن لآخر .. يسامره كي لا ترهقه الهموم التي تسيطر علي أفكاره .

وعندما وصلا إلي أطراف المدينة وقلت البيوت واتسعت القفار وبينما (عمر) يتأمل ما حوله مستمعاً إلي مسامره بذهن مزدحم .. شاهد فارساً يحث ركبه نحوهما .. فأوقف (اسلم) عن الحديث قائلا:

- والآن اصمت وانظر الرجل القادم على فرسه عله رسول يحمل رسالة من خال النبي (سعد بن أبى وقاص) يخبرنا بشأن الفرس .

اقترب الفارس وترجل ليلقى السلام على أمير المؤمنين ويحمل في يده رسالة من أمير الحرب (سعد بن أبى وقاص) سلمها إلي أمير المؤمنين .. الذي بادره سائلا :

- أخبرني أولاً كيف حال سعد ؟ هل اشتد على الكفار .. رحيم عليكم ؟

أومأ الرجل موافقا وقال:

- هو كما أراد الله ورسوله وخليفته يا أمير المؤمنين .

اطمأن (عمر) وفتح الرسالة وقرأ ما جاء فيها :

«سلام الله عليكم أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب)،

إنه من سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في بلاد فارس، أعلمك أننا علي أعتاب (نهاوند) و أنه قد بلغ الفرس خمسين ومائة ألف مقاتل، فإن جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك، فانظر ماذا ترى ونحن لأمرك طائعين .»

طوي (عمر) الرسالة وصمت قليلا ثم أشار إلى أسلم قائلا :

- يا (أسلم) أكتب إلى سعد أنى حاشد الناس ليومك هذا ..

ثم أردف قائلا في قوة

- أما والله لأولين أمرهم رجلاً ليكوننَ أول من يقابل الرماح بوجهه إذا لقيّها غداً .

فتساءل (أسلم) :

- ومن يكون يا أمير المؤمنين ؟

قال (عمر) بحزم :

- النعمان بن مقرن المزني .

فقال (أسلم) و(رسول سعد) معاً :

- هو لها ورب الكعبة .

وقفلا عائدين من حيث أتيا يتبعهم الفارس وجواده ..

وقبل الفجر ..

دخل (عمر) إلي المسجد يبحث عن (النعمان) فوجده مستقبلا القبلة يصلي في خشـــوع، فجلس خلفه ينتظـــره حتى يفرغ من صلاته .. فلما قضى صلاته ذهب (عمر) ليجلس إلى جواره وهو يسند ركبته إلي ركبة (النعمان) وبادره قائلا دون مقدمات :

- لقد انتدبتك لعمل .

فقال (النعمان) وهو ينظر في عين عمر وكأنه يريد أن تصل الكلمات إلى روح عمر قبل أن تصل إلى أذنيه :

- إن يكن جباية للضرائب فلا، وإن يكن جهاداً في سبيل الله فنعم .

- فنظر إليه (عمر) متأملاً وصمت لبرهة ثم رفع يده إلى السماء قائلاً :

- اللهـــم هذا عبدك قد أحب الآخرة على الدنيـــا فهب له خير الدنيا والآخـــرة، اللهم تقبله يوم الفتح من الشـــهداء والصديقين .

ومـــا أن انقضت صلاة الفجر ومـــع أول خيوط النهـــار انطلق المدد يقـــوده (النعمان بن مقرن المزنـــي) و اندلعت نيران الحرب ولم يخب ظن أمير المؤمنـــين في رجاله .. كانت الأخبار تبشـــر بفتح عظيم، الكل في أروقـــة المدينة لا حديث لديه إلا قتال الفرس والمعارك الدائرة على أبواب (نهاوند) .

وبينما كان أمير المؤمنين (عمر) يقف على منبر رسول الله يخطب في الناس خطبة الجمعة فإذا به يتوقف ليعلو صوته مناديا :

- يا سارية الجبل .. الجبل.. من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم .

ظل يكررها والناس لا تعلـــم ما يقول حتى فرغوا من الصلاة فتقدم الناس منه وسألوه عن هذا الكلام فقال مشيحاً بيده وكأن شيئاً لم يكن :

- والله ما ألقيت له بالاً، إنه شيءٌ أتى على لساني .

فصارت بينهم الهمهمة هل يقصد (سارية بن زنيم) أحد قادة الجيوش في معركة الفرس الدائرة لكن لم يصل احدهم إلي إجابة شافية فنظروا إلى أبا الحسن (على بن أبى طالب) يستفهمون وقد كان حاضراً :

- ما هذا الذي يقوله أمير المؤمنين؟ وأين سارية منّا الآن؟

فقال (على) وهو يتركهم خارجاً من المسجد :

- ويحكم! دعوا (عمر) فإنه ما دخل في أمر إلا خرج منه .

وصارت القصة حكاية أهل المدينـــة لأيام حتى وضعت الحرب أوزارها وعاد الجيـــش منتصراً.. وعندها تبين للناس خـــبر القصة عندما قدم (ســـارية) علـــى (عمر) في المدينـــة فجلس بجواره واخـــذ يحكي له ولمن يجالسونه:

- يا أمير المؤمنين، تكاثر العدو على جنود المسلمين وأصبحنا في خطر عظيم، حينهـــا ومن حيث لا ادري حدث شـــيء عجيب، لقد سمعت صوتاً ينادي:

- «يا سارية ! الجبل .. الجبل.. من استرعى الذئب الغنم فقد ظلم».

عندئذ التجأت بأصحابي إلى سفح جبل واتخذت ذروته درءاً لنا يحمي مؤخـــرة الجيش، وواجهنا الفرس من جهة واحدة، فما كانت إلا ســـاعة حتى فتح الله علينا وانتصرنا عليهم .

فهلل المســـلمين الله أكبر الله أكبر .. وبلل الدمـــع عينا الفاروق ولحيته وهـــو يتمتم قائلا :

- اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني في غرة، ولا تجعلني مع الغافلين.

ثم استدرك قائلاً :

- حدثني عن (النعمان) في المعركة .

اخفض (سارية) رأسه حزناً وحكي :

- لما أذن (النعمان) للجيش بالقتال كبر التكبيرة الأولى ثم الثانية ثم قال «اللهم أعزَّ دينك وانصر عبادك، واجعل (النعمان) أول شـــهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أمنوا رحمكم الله... «

وكبر (النعمان) التكبيرة الثالثة، وبـــدأ القتال، وأثناء تقدم القائد بدأ الفرس يتركون الســـاحة وانزلق الفرس بقائده من كثرة الدماء في أرض المعركة، فصرع بين ســـنابك الخيل، وجاءه ســـهم في جنبه، وأخذ الراية قبل أن تقع وناولها (حذيفة بن اليمان) فأخذها ثم فقد وعيه من شدة الألم ولمحه (معقل بن يسار) فجاءه بقليل من الماء، فغسل عن وجهه التراب، فأفاق (النعمان) وقال :

– من أنت ؟

فقال (معقل) وهو يحاول إيقاف الدماء النازفة من جرح قائده :

– أنا معقل بن يسار .

قال (النعمان) مغالبا آلامه :

– ما فعل الناس ؟

قال (معقل) مطمئناً :

– فتح الله عليهم ..

قال (النعمان) بارتياح :

– الحمد لله فلتكتبوا بذلك إلى (عمر) .. ثم فاضت روحه.

فرغ (ســـارية) من حكايته وقد أغرقت الدموع لحيته واشتد بكاء أمير المؤمنين وهو يتمتم بذكر ربه ..

فتمتم (أسلم) قائلاً لنفسه بحزن :

– وها هي كرامة أخرى يا ابن الخطاب

***

الحكاية الثانية

(الخولاني)

في دمشـــق وتحديدا في قاعة الحكم الواسعة بقصر الخلافة وبعد أن صرف حاشيته جلس أمير المؤمنين (الوليد بن عبد الملك) يفكر في أمور الدولة وفيما سمع من كبار رجال دولته عن أمور العامة وأحوالهم فيما يبدو أن اهتمامه بتوســـيع دولته وتجهيز جيشه قد بدأ يلهيه عن أحوال الناس هل يوقف تقدم الجيش في أســـيا والمغرب ويلتفت إلى أمور العامة أكثر؟؟!

عندئذ قاطع أفكاره احد الحراس، يطلب الأذن منه لاســـتقبال الزائر ويقول :

- الإمام (الزهري) بالباب يا سيدي .

فاعتدل (الوليد) في جلسته وأشـــار إلي الحارس أن يدخله وهو يقوم مرحبا:

- أهلا بمعلم القصر وأحسن من روى الحديث .

قال الأمام (الزهري) وهو يمسح على لحيته البيضاء :

- السلام على أمير المؤمنين .

نزل (الوليد) عن عرشه وأمسك بيد الإمام يجلسه وجلس على المقعد الذي يجاوره وهو يقول :

- لمَ لم تبعث لنا من يخبرنـــا برغبتك في رؤيتنا وكنا جئناك حتى بيتك يا إمام .

قال الإمام في غضب لم يســـتطع إخفاؤه خلـــف نبراته التي تتظاهر بالهدوء:

- سمعت ما لم أسطِع عليه صبراً .. فجئتك لأسمع قولك فيه .

هز (الوليد) رأسه متسائلا عما يجعل الإمام غاضبا إلى هذا الحد :

- وماذا سمعت عنا يا إمام ؟

ارتفع صوت الإمام موبخا:

- أتخوض في أمر عائشة يا ابن أخيها ؟!

انتفض (الوليد) في جلسته وهو يقول :

- والله مـــا كان ولا كنت أن أخوض في أمـــر لا أعلمه، ولا أزيد على شيء أعلمه حرف حتى ولو بالخير فما بالك بأمر يخص أم المؤمنين (عائشة) .

هدأت نبرة الإمام قليلا فقد رأي الصدق في كلماته وهو يقول:

- أسمع يا ولدى أنا هنا الساعة لا لأحاكمك وإنما لأعلمك.

صمـــت قليلا ثـــم أردف بعد أن رأي الغضب علـــي وجه أمير المؤمنين محاولا التخفيف مـــن حدة الموقف :

- هل أعلمك بحديث رجل كان قد أوتي حكمةً؟

ارتاح (الوليد) قليلا وهدأ انفعاله وقد أدرك أن غضبه قد بدا في حضرة إمامه وقال بتوقير :

- وممن غيرك أتعلم يا أمام كلى أذان صاغية .

نظر الإمام إلى جليســـه الذي هدأ قليلا وبدأ يحكي ما جاء لقوله في المقام الأول :

- كان زمرة من أهل الشـــام ينتشـــرون في المجالس ويشيعون ما يؤذي (عائشـــة) ويخوضون في أمرها، وعندما سمع أحد الصالحين أن في مجلسه من ينالون من أم المؤمنين غضب غضبا شديدا ولكنه كظم غيظه ليرد عليهم في هدوء كي لا يســـتفزهم فيزيدون :

«ألا أخبركـــم بمثلي ومثل أمكم هذه؟ كمثل عينين في رأس، تؤذيان صاحبهما، ولا يستطيع أن يعاقبهما إلا بالذي هو خير لهما» فسكتوا ولم يستطيعوا الرد .

اومأ أمير المؤمنين مصدقا علي ما سمع :

- يا الهي .. والله لقد صدق الرجل .

ثم سأل في فضول :

- ومن هو يا أمام ؟

قال الإمام في تبجيل :

- أنه صاحب الكرامات (إبراهيم) الأمة (أبو مسلم الخولاني) .

تعجب (الوليد) من نبرة التبجيل في صوت الإمام وحرصه علي ذكر الألقاب :

- ولماذا لقب بهذا اللقب ؟

سأله الإمام بنبرات مداعبة يدرك فضوله المحبب :

- ألديك متسع لتسمع ؟

قال الوليد وهو يستريح في جلسته وكأنه لن يبرحه قط :

- لدى باقي العمر أن كان في العمر بقية .

أومأ الإمام استحسانا وقال :

- أطال الله عمر أمير المؤمنين حتى يتعلم .

ثم اتكأ على مقعده وأثنى على الله ورسوله وتحضر ليحكي لخليفته عن قصة الولي (أبو مسلم الخولاني) .

«لما أشتد المرض برسول الله بعد حجة الوداع وتناقلت الأخبار بين القبائل حتى وصلت إلى اليمن، تلقف تلك الأخبار رجل شديد المرة، قوي البنية، أسود النفس، مستطير الشر، قد أتقن الكهانة في الجاهلية، وحذق الشعوذة على الناس، و كان على ذلك فصيح اللسان رائع البيان، ذكي الفؤاد، قادرا على اللعب بعقول العامة بأباطيله، و كسب ولاء الخاصة بهباته و عطاياه، و كان لا يظهر للناس إلا مقنَّعا بقناع أسود ليحيط نفسه بهالة من الغموض و الهيبة .. هذا الرجل يدعى (الأسود العنسي) .

أغرته السلطة فراودته نفسه، وسول له الشيطان أن يعود للكفر بعد الإيمان وأن يفترى على الله الكذب ويدعى أنه نبي مرسل من عند الله وأنه يأتيه ملك من السماء ينزل عليه بالوحي ويخبره بالغيب، وانتشرت دعوته كالنار في الهشيم وساعده على ذلك الكثير من رجال قبيلته وكان يستعين بالأذكياء منهم لتأكيد كذبه فيمشون بين الناس يسمعون أخبارهم وأسرارهم وخبايا بيوتهم ويبلغونه بها، ويهمسون بينهم بخبر نبوته فيذهب الناس إليه حاملين آمالهم وأمانيهم وآلامهم،

فيخبرهم بما عنده مـــن أخبارهم ويخبرهم بحاجاتهم قبل أن يطلبونها ويأتي أمامهم بالعجائب والغرائب ما يذهل عقولهم ويحير ألبابهم ؛ فما لبث أن عظم أمره عند العامة والسوقة والدهماء وكثر أتباعه فوثب بهم علـــى (صنعاء)، ومنها إلى مدن أخرى وأعمل فيها أتباعه مثلما فعلوا من قبـــل حتى دانت له البلاد الواقعة مـــا بين (حضر موت) و(الطائف) وما بين (البحرين) و (عدن) ولكن جل ما كان يؤرقه ويفســـد عليه إحساسه بعظمته هم المعارضـــين ممن آتاهم الله من فضله إيماناً راســـخاً وولاءً صادقاً لله ورســـوله فكان يتتبعهم ويتصدى لهم ويسخر منهم وان تمكن منهم انزل بهم أشـــد العذاب، وكان في طليعـــة هؤلاء الصادقين رجلا صلبا في دينه، قويا في إيمانه، عنيدا في الجهر بالحق، قد أخلص نفســـه لله، فأعـــرض عن الدنيا و زينتها، زهد في زخـــرف العيش و متاعه، و نذر حياته لطاعة الله و الدعوة إليه، وباع الفانية بالباقية، بيع السماح، فأحلَّه الناس من نفوســـهم منزلة رفيعة، ورأوا فيه رجلا طاهر النفْس والنفَس، مســـتجاب الدعوة عند الله هو (أبا مسلم الخولاني).

وقد أراد (أسود العنسي) أن يبطش بأبي مسلم بطشةً جبارة تبث الهلع والجزع في نفوس معارضي دعوته في السر و العلن، يقمعهم قمعاً.

فأمر أتباعه أن يأتونه بأبي مسلم الخولاني ولو مقيداً، وأمر بالحطب أن يُكدس في ســـاحة من ســـاحات صنعاء، و أن تُضرم فيه النيران، و دعا الناسَ إلى أن يشـــهدوا اســـتتابة فقيه اليمن و عابدها الأول (أبي مسلم الخولاني)، وإقراره بنبوته، و في الوقت المحدد أقبل (الأسود العنسي) على الساحة التي اكتظت بالناس ... ووجد النار تكاد تصل إلى عنان السماء و(أبا مسلم الخولاني) مقيدٌ إلى جوارها فالتفت إليه قائلا بصوت جهوري ليسمعه الجميع:

— أتشهد أن محمدا رسول الله .

قال (الخولاني) بأعلى صوته ليسمعه أهل الأرض والسماء :

- نعم ورب الكعبة .

فقال (العنسي) في تفاخر :

- وتشهد أنى رسول الله .

فأشار (الخولاني) لأذنه وهو يبتسم ساخرا ويقول :

- إن في أذني صمم لا أسمع ما تقول .

ساد الصمت بين الناس مستمعين لما يجري ..

فتلفت الأسود حوله وكرر سؤاله في غيظ :

- أتشهد أني رسول الله ؟

اتسعت ابتسامة (أبو مسلم) الساخرة وهو يشير إلي أذنه ويهز رأسه نافيا ..

- لا أسمعك .

ضج الناس بين معترض وساخر ومعجب ..

فأسود وجه (العنسي) من الغضب وقال :

- إذًا أقذفك في هذه النار.

فقال(الخولاني) بقوة وقد تلاشت سخريته وشاب صوته الحزم :

- إن فعلت اتقيت بهذه النار التي وقودها الحطب نارا وقودها الناس و الحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون .

فارتجف قلب (العنســـي) بين أضلعه وأشاح بوجهه عن الناس حتى لا يـــروا ما يختلج على وجهه من انفعالات تفضح أمره وقال :

- لن أعجل عليك، و ســـأتيح لكَ الفرصـــة لتراجع عقلك، ثم أعاد عليه السؤال فقال:

- أتشهد أن محمدا رسول الله ؟

فقال (الخولاني) :

- نعم أشهد أنه عبد الله و رسوله، و انه أرسله بدين الهدى ودين الحق، و ختم برسالته الرسالات.

فازداد (الأسود) حنقا وقال:

- وتشهد أني رسول الله ؟

فقال (الخولاني) متهكماً :

- أما أخبرتك أن في أذني صمم فلا أسمع مقالتك هذه .

فاستشاط (العنسي) غيظاً وأمر برميه في النار، فحمله رجاله وألقوه بـــين لهب النيران المتأججة، ووقف ليشـــاهد الذعر علـــي وجوه البعض والتشـــفي في وجوه البعض الآخر وأطربه مـــا رأي فعاد لينظر نحو النار المتقدة التي احتضنت ألســـنتها جسد معارضه فوجد أنها لم تمسه بضر وكان يجلس فيها وكأنه يجلس على العشـــب في يوم مشـــرق.. فبهت (العنســـي) وأصاب الناس الذهول والعجب وســـرت الهمهمةٌ بين الناس، وكان أول من أفاق من الصدمـــة كبير كهنته فجرى نحوه ليخرجه بدوره من صدمته ويقول :

- ســـيدي .. اصرف الناس واخمد النار واتركه يرحل ؛ لئن بقى هذا

الرجل بيننا ساعة واحدة أفسد عليك أتباعك .

فأخذ (العنسي) بمشورة كاهنه وأمر بإخماد النار وأن يأتوه بالرجل، فلما أتاه (الخولاني) قال في غطرسة مصطنعة :

- لقد أتاني الوحي ومننت عليك بالعفو فأمرت النيران ألا تؤذيك ولكن عليك أن ترحل عن ديارنا .

فقال (الخولاني) في شموخ وهو ينظر إليه وأتباعه باحتقار :

- لله وحده الفضل والمنة .

ثم توجه نحو بيته المتواضع وأخذ متاعه القليل وامتطى راحلته وتوجه إلى المدينة فلما وصل أطرافها بلغه نعى رسول الله فحزن حزناً عظيماً ودخل إلى مسجد رسول الله وقام يصلي طويلا والدمع يبلل وجهه ولحيته ولاحظه (عمر بن الخطاب) فتعجب من أمره ووجده غريبا عن المدينة فاقترب منه وانتظر حتى فرغ (الخولاني) من صلاته وجد أمامه (عمر) يسأله :

- من أين أتى الرجل ؟

أجابه (الخولاني) وهو يمسح الدمع عن لحيته وان بقي الحزن ساكنا في ملامحه:

- من اليمن .

فعلم (ابن الخطاب) بفطنته حزن الرجل لأنه لم يدرك رسول الله في حياته وأراد إلهاؤه قليلا عن حزنه فسأله :

- إذاً فأنت من سيخبرني ما فعل الله بصاحبنا الذي أوقد له عدو الله النارَ.. فأنجاه الله منها؟

الأولياء

أومأ (الخولاني) برأسه حانيا إياها في تواضع :

- هو بخير من الله ونعمة .

ففطن له (عمر) وهتف قائلاً :

- ناشدتك الله يا أخي .. انه أنت أليس كذلك ؟

فأحني رأسه وقال :

- بلى هو أنا .. فمن هو أنت ؟

فقبله (عمر) بين عينيه وهو يقول :

- أنـــا عبد من الله عليه أن يرى في أمة محمـــد من فُعل به كما فُعل بخليل الرحمن إبراهيم عليه الســـلام .

وهنا فرغ الأمام (الزهري) من قصتـــه ونظر إلى الوليد الذي أغرقت عيناه بالدمـــع وقد وجد جواب معضلته ..

قال الإمام (الزهري) وهو يقوم من مجلسه :

- اللهـــم أرزق عبدك هذا علماً نافعاً ورجـــالاً من أوليائك الصالحين يعينـــوه على طاعتك ويصوبـــوه أن أخطأ ويقوموه أن أعوج .

فـــكان عصر الوليـــد العصر الذهبي للدولة الأمويـــة ... امتدت فيه الدولة الإســـلامية من الصين شـــرقا والمغرب غربا والأندلس شمالا .. امن الطرق في كافة الاتجاهات وحفر الآبار وأقام المستشـــفيات وأعطى المجذومـــين والعميان والمقعدين وتعهـــد الأيتام وكفلهم .

وتلك كرامة أخرى ....

***

الحكاية الثالثة

(ايشاع)

تمر السنوات ويشتعل الرأس شيبا والحزن يكتنف البيت وكأنه ظلام الليل يحل بعـــد نهار، كانت تراه ينظر للصبية في الجوار وكأنه يبحث فيهم عن ضالته وعندما يفرغ من مراقبتهم تري ظلام الحزن يغرق عينيه ثم تبدده دموع التضرع إلى الله حتى يغشاهما الأمل فيعود لمراقبة الصبية اللاهين من جديد .

لم تيأس (ايشـــاع) ولم تقنط من رحمـــة الله ولكنها تعلم جيدا أنه لا يوجد لحل هذا الوضع سبيل، وأن الحزن الذي يكتنف قلب زوجها نبي الله (زكريا) ليس لأجل إنجاب طفل يحمل اسمه ويكون له ســـندا وقوة يوم يفتقد السند، وتهلك القوى .. إنما حزنه لسبب أكبر من ذلك بكثير، إن (زكريا) يخاف على دينـــه فأبناء عمومته لا يوجد بينهم من يؤتمن علـــى دين الله ولا على كتابه المقدس، هو خائف على ضياع الحكمة من بعده و تبديل الشريعة وتحريف الكتاب .

ولكن ها هي الأيام تمر ولم تأت البشرى .. ولم يسكن رحمها حملاً ؛ وكيف تحمل وهى عاقر كصحـــراء جرداء مهما ارتوت لا تنبت الزهر أبدا ...

كانت ليلة مقمرة توســـط البدر فيها كبد الســـماء .. لم تستطع النوم وقـــض الحزن مضجعها وانتفض قلبها ألمـــاً فقامت لتصلي حتى

سـكن قلبها وشـق نور الفجر ظلمة الليل فتهاوت الدمـوع من عينيها كشهب السـماء وهى تقول :

- يا رب.. أنت تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ؛ فإن كان ما نحن فيه خيراً لنا فأبقنا عليه وإن كان ما نحن فيه شراً لنا فأبدلنا بخيرٍ منه .. أنت تعلم ونحن لا نعلم انك أنت علام الغيوب .

ثم كفكفت دموعها وهـى تبحث بعينها عن زوجها (زكريا) الذي استيقظ لتوه فلما رأته قالت:

- ألن تذهب اليوم إلي (مريم) ؟

لم تتلق أي إجابة مـن زوجها فقد كان (زكريا) غائصاً في بحرٍ من الشـرود فأعادت عليه سؤالها بصوت أعلي فانتبه قائلاً:

- (مريم)؟؟؟! بلي سأذهب إليها .

ثم صمت قليلا ليعود إلي شروده متابعاً كأنما يحادث نفسه :

- غريب أمر هذه الفتاة !!.

قالت ايشاع والحنان يملأ صوتها:

- وما الجديد في ذلك فمنذ أن نذرتها أمها لله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وهي كالنور يمشى بيننا ... ألم أخبرك عن ذلـك اليوم عندما سمعتها تتحدث في محرابها وأنا التي أعلم أنه لا أحد يدخل عليها المحراب إلا أنت فسألتها عمن كانت تحادث فقالت أنهم نفر من الملائكة كانوا عندي يبشـرونني بأن في السماء يتردد اسمي وأن الله اصطفاني وطهرني واصطفاني على نسـاء العالمين .

قال(زكريا) والأمل يملأ صوته :

- وأنا مذ كفلتها وأنا أرى عندها العجب فكلما دخلت عليها المحراب

أجد عندها رزقاً كثيرا فاكهة الصيف في الشـــتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ولما ســـألتها قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حســـاب ... ومن يومها وأنا لا يشغل قلبي ولا عقلي إلا الدعاء لله أن يهب لي وليا يرثني ويرث من آل يعقوب.

همست (ايشاع) مرددة لا تحبس دمعها وتقوم لتخرج مغلقة عليه باب محرابه ليتعبد :

- إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ظلت ترددها حتى حل الليل وبعده زكريا في المحراب يدعو ويصلي.. حتى غلبها النعاس ..

وفي الصباح لم تجد زكريا في فراشه هل بقي في المحراب منذ الأمس.. قامت لتجده خارجا من المحراب فسألته :

- أخارجٌ أنت ؟

أومأ زكريا برأسه أن نعم ولم يجب .

فعادت وسألته وهي متعجبة من صمته :

- ألن تأكل .. أنت لم تتناول عشاءك بالأمس ولم تفطر أيضاً.

هز رأسه نافيا وأشار بيده بالتحية وخرج .

لم تفهم ايشـــاع ما جري لزوجها الذي بقـــي علي حاله ثلاثة أيام لا يكلم الناس إلا رمزاً حتى هي .. لا تســـمع له صوتاً إلا في محرابه يتعبد ويدعو ويصلي ولمـــا ذهبت وقصت علي مريم ما يجـــري فلم تجيبها إلا بإيماءة العارف وابتســـامة المطمئن، حتى حلت الليلة الثالثة ...

كانت ايشـــاع تشـــعر بحيوية لم تعهدها في نفسها منذ سنوات فقد استقام ظهرها واشـــتد عودها وكأنما عاد بها الزمن سنوات .. كانت

كثيراً ما تجد زكريـــا يحدق إليها بحنان وتري في عينيه فرحة وكأنه بدوره يشعر بما تشعر به .. ولكن لم يفصح بما يدور في صدره على لسانه قط ولم يجب علي أي من أســـئلتها ولكن عيناه أخبرتاها أن اصبري..

خرجت (ايشـــاع) لتجلس خارج البيت فقلبها لا يهدأ فهي تشـــعر أن هناك شيء ما في الأفق لا تعلم كنهه لكن قلبها يخبرها بأن الخير آت ..

نظرت إلى السماء فوجدتها صافية والنجوم تتلألأ ونسيم الليل يحمل عطراً لا تألفه لم يخرجها من حالة السكون والطمأنينة التي تشعر بهما إلا صوت (زكريا) وهو يهتف بجوارها ويقول :

- صدقت والله مريم صدقت والله مريم .

فالتفتت إليه قائلة :

- ماذا حدث ؟.. ولم لم تكن تتحدث معي منذ ثلاثة أيام ؟

ضمها إليه وهو يبكى ودموعه تنساب على لحيته ويقول :

- جاءتني البشرى سيرزقني الله بالولد .

لم تستوعب (ايشاع) ما قاله فعادت تسأله :

- أي بشرى وأي ولد ؟

- لقد بشـــرني الروح القدس بأن الله استجاب دعائي وسيهب لي غلاماً اسمه (يَحيىَ) وجيهاً في الدنيا والآخرة.

غالبت (ايشاع) حزناً اجتاح قلبها وهى تقول في خفوت :

- إذاً هو من امرأة غيري .

ضمها إليه أكثر وهو يقول :

- بل منكِ أنتِ يا حبيبتي يا أم نبي الله .

صدمها ما قال .. ولم تستطع مغالبة الفرحة إن كان قد قال فهو صادق، ولكنها لم تستطع مقاومة السؤال الملح فقالت في لهفة :

- منى أنا !! كيف يكون وأنا عاقر وفى هذا السن ؟!!

ضمها (زكريا) قائلا:

- هو أمر الله كن فيكون يا ايشاع.

ثم أخذها من ذراعها ليجلسا سويا وهو يقول :

- تعالي سأحكى لكي ما حدث ...

بعد أن عدت من عند (مريم) ورأيت عندها ما رأيت زاد يقيني بأن الله سيعطني ما أريد فدعيت الله وأنا أصلى أن يهبَ لي من لدنه ذرية طيبة، وألا يذرني فرداً وهو خير الوارثين، ودعوته أن يا رب إني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهبني من لدنك ولياً، واستزدت في الدعاء حتى نادتني الملائكة وأنا قائم أصلى في المحراب

- «يا (زكريا) أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين «

فقلت :

- رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وكانت امرأتي عاقراً؟!

فأجابتني الملائكة :

- «كذلك الله يفعل ما يشاء «.

فسألت الله أن يجعل لي آية .. فكانت ألا اكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا .. وها أنا وقد انقضت الثلاثة أيام .

ثم أكمل قائلا وهو يبتسم :

- من الواضح أن مريم ليســت وحدها صاحبة الكرامة يا (ايشاع) فها أنت ترزقين بالولد بعد كل هذا العمر.

انتفضت من مكانها وهى تقول:

- (مريم) ..

ثم التفت إليه وهي تقول في لهفه

- ائذن لي أن أذهب إلى (مريم).

فأومــأ إيجاباً متعجبا من ردة فعلهــا .. فتركته وهى تجرى لاهثة في اتجاه منزل (مريم) التي اســتقبلتها بابتســامة تملأ الوجه البشوش الوضاء وتقول بصوت أشــبه بترانيم الفرح :

- يا بشرى أهل النبي بالولد، يا بشرى تأتى من عند واحد أحد .

تخضب وجه (ايشاع) بحمرة الخجل وكأنها عادت إلى صباها وقالت :

- كنت أعلم أنه قد جاءك الخبر.

- نعم سمعت الملائكة تقول أن الله استجاب لدعاء (زكريا) وأصلح له زوجه وذلك بفضل إنهم كانوا يســارعون في الخيرات ويدعون الله رغباً ورهباً وكانوا لله خاشعين

ثم استدركت مريم قائلة:

- وأنها والله لمعجزة من الله لنبيه (زكريا) وكرامة لزوجته (ايشاع) .

وتلك كرامة أخرى ....

الحكاية الرابعة

(خبيب)

- انظـــر إلى هذا !! يجرى حـــافي القدمين تحت شمس المدينة هل جُن هذا الرجل !!

قالهـــا (بلال) لرفيقه (أبا بكر) مراقباً الرجـــل القادم نحوه لا تثنيه شمس المدينة الحارقة ولا الرمال الملتهبة لا يكاد يلتقط أنفاسه من شدة التعب فنادى عليه مشفقاً :

- يا رجل شربة ماء وإلا هلكت.

اقترب منه الرجل وهو يلقف الهواء من بين كلماته :

- لا حاجة لي بالماء ولكن دلني على بيت رسول الله .

نظرا (أبو بكر) و(بلال) إلى بعضهما يتعجبان من أمره .

- ومن أنت وما حاجتك في رسول الله يا رجل ؟

قالها (بلال) وهو يتفحص الرجل بعينيه جيدا .

- أنا رجل من هذيلٍ أدعى .....

قاطعه (أبو بكر) في جزع قائلاً :

- أهناك سـوءاً ما أصاب وفد رسول الله الذي بعثه ليفقه القبائل في الدين؟

أومأ الرجل في حزن :

- نعم لقد قتل أغلبهم وأُسر من تبقى .

هتف به بلال في جزع :

- العشرة كلهم ... ومن فعلها أماتك الله ؟

قال الرجل :

- نعم العشرة كلهم ... لقد خرج لهم مائتين من الرماة من بني لحيان فنـادوا فيهم من أميركم فخرج لهم (عاصم بـن ثابت الأنصاري) فقالوا لهم:

- انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً.

فقال (عاصم) أمير السرية:

- أما أنا فواللهِ لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللَّهم أخبر عنا نبيك .

فرموهم بالسهام حتى قتلوا (عاصماً) في سبعه، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهـد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن الدثنة ورجل آخر لا أعرفه، فلما تمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسـيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث:

- إن هذا أول الغدر والله لا أصحبكم إن في هؤلاء لأسوة - يريد القتلى - .

فجـرروه وعالجوه علـى أن يصحبهم فأبـى، فقتلوه ثـم انطلقوا بـ(خبيـب) و (ابن الدثنة) حتى باعوهما لقريش بأسـيرين من هزيل كانوا بمكة .

قال (أبو بكر) في حزم والحزن يملأ قلبه على أصحابه :

- لا حول ولا قوة إلا بالله والله لأفتديهم ولو بأخر درهم في دارى .

هز الرجل رأسه في أسى وقال :

- لا أظن ذلك يصلح مع صاحبكم (خبيب) .

قال (بلال) :

- ولمَ ؟

أجابه في أسف :

- لأن من اشـــترى صاحبكم لا يريد إلا قتلـــه ليأخذ بثأر ابن عمومته الذي قتله (خبيب) يوم بدر.

قال (بلال) متفجعاً :

- إذن هو في بيت (حجير التميمي) ؟

أومأ الرجل مجيباً :

- نعـــم هو كذلك لكن (حجير) يحجزه عند رجل من أهله في انتظار انقضاء الأشهر الحرم ثم يقتله .

- يجب أن نخبر رسول الله .

قالها (أبـــو بكر) وهو يأخذ الرجل من ذراعـــه مصطحباً إياه لبيت رسول الله .

أما في مكة ...

فقـــد كان (خبيب) محتجزاً في بيت فقير على أطراف مكة يســـكنه رجـــل وزوجته وابنهما الصغـــير، كان موثوقاً إلي نخلة في صحن البيت

بأغـــلال من حديد من يديه وقدميه لا يحـــول بينه وبين الأرض العارية شـــيئاً... وكان (حجير) قد أمر ســـكان البيت باليقظة والحرص وعدم الغفلة عن (خبيب) ولو ســـاعة فكان إذا خرج الرجل من البيت جلســـت الزوجـــة تراقب (خبيب) حتى يرجع .

ولكن طول جلســـتها لتراقبـــه نفذ إلى عقلها وقلبهـــا لما وجدت فيه ما يثير العجـــب كانت تراه دائما يتمتم بالدعـــاء .. يأكل في صمت اللقيمـــات الجافة التي تقدم له لم يحـــاول الاعتراض أو المقاومة أو حتى اســـتجداء الحرية لا يخاطب إلا زوجها وذلك إذا أراد الخروج إلى الخلاء أو الاغتســـال وعندما يرفـــض زوجها طلبه في أن يدعـــه يصلي لا يكرر الطلب بل يصلي وهو مقيد علي حاله، وعندما يقترب منه الصغير كان يلاعبه ويضحكه حتى يأتي زوجها فيأخذ الطفل ناهياً إياه من الاقتراب من الأســـير ليعود ليداعبه في اليوم التالي لم يرفع عينيه فيها ولم يحاول مخاطبتها أو اســـتمالتها في البدء ظنته يعادي النساء ويحتقرهم ولكن مع الوقت وجدت أدبه الجم في التعامل معها حين تعطيه القدر اليســـير من الطعـــام ملفتاً فأدركت تجنبه إياها عن حســـن خلق لا عن غلظة وفظاظة.

وفى احـــد الأيام دخلت على (خبيب) فوجدت في يده قطفاً من عنب فقالت والدهشة تملأ وجهها :

— من أين لكَ بهذا العنب يا رجل ؟

ثم أجفلت وهي تنظر حولها في توتر مخافة أن يكون احد من أصحاب محمد قد تسلل إلي بيتها ليحرر صاحبه .

فأدرك (خبيب) ذعرها وابتسم مطمئنا ثم نظر إلى السماء وهو يقول :

— هو من عند رب الأرض والسماء .

قالت المرأة في تعجب :

- ولكننا في فصل الشتاء ومكة كلها ليس بها حبة عنب واحدة .

قال (خبيب) وهو يبتسم :

- إنه القادر المقتدر لا يُســـأل عما يفعل وأنتم تُسألون .. هذا من عنب الجنة أطعمك منه على أن تلبى لي طلب .

نظرت له المرأة بانبهار وقالت:

- نعم أفعل .

ثم استدركت قائله في سرعة :

- إلا أن أفك عنك وثاقك .

تبسم (خبيب) وطمأنها قائلا :

- أريد فقط موسى لأقوم بسنن الفطرة كما علمنا رسول الله .

نظـــرت له المرأة في عدم فهم ثم نظرت إلي الفاكهة في يده وما كان منها إلى أن خرجت وأحضرت له ما يطلب ولما أعطته الموســـى أقترب منه طفلهـــا وجلس في حجره ففزعت المرأة خوفا على طفلها الذي بين يديه وهو يمســـك الموسى فألقت الفاكهة من يدها وقالت في خوف:

- سيدي لقد أمنتك فلا تقتل طفلي بحق ربك الرزاق .

تعجب (خبيب) وأطلق الصغير مطمئنا إياها ثم قال :

- من يخاف الله لا يفعل هذا وما كان لي أن أكون من أصحاب محمد وافعل ذلك خذي الغلام ولا تقلقي .

قالت المرأة وهى تخطف طفلها وتحتضنه :

- ورب الكعبة مـــا في مكة كلها رجل مثلك .. ما أن وطئت قدمك هـــذا المنزل إلا وامتلأ بالخير والرزق الوفير وكأننا نرزق من أجلك والله لو كان الأمر بيدي لأطلقت ســـراحك الســـاعة ولكننا أهل ضعف وهم أهل قوة .

قال (خبيب) :

- لا تحزني يا أختاه ولكن قولي إنا لله وإنا إليه راجعون .

أخـــذت طفلها وخرجت وهى تتمتم بالكلمـــات والدمع يغرق عينها فهي تعلم أن بين لحظة وأخرى ســـيدخل عليها زوجها ليأخذه ليســـلمه لـــ(حجير) فاليوم أخر أيام الشـــهر .

بعد أن أخذوه خرجوا به إلي مكة حيث امتلأت الســـاحة بأهل قريش ثم قاموا بتعليقه في نخلة وربطوه فيها .

قال (حجيرا) الجالس بين سادة القوم وكبرائهم :

- لا تقتلوه نريد أن نعذبه فيراه العبيد قبل السادة كي يكون عبرة لكل من تسول له نفسه إتباع محمد .

فضربوه قريبا من يديه وقدميه لم يصرخ الرجل او يستجدي الرحمة..

فلما طال الوقت بدون أن يرضيهم بصرخة أو صيحة ألم قام إليه (أبو سفيان) وأوقف السياط التي تنزف دماء الأسير وقال :

- يا (خبيب) أتحب أن يكون محمد مكانك الآن .

قال (خبيب) مغالباً آلامه:

- والله ما أحب أن يكون رسول الله في بيته ويشاك بشوكة فكيف أحب أن يكون في مكاني .

فقال (أبو سفيان) لنفسه في حسرة :

- ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد لمحمد.

ثم أكمل قائلاً وقد هزه ثبات الرجل :

- يا (خبيب) أتحب شيئاً قبل أن تقتل ؟

قال (خبيب) :

- نعم أحب أن أصلى ركعتين .

فأشار (أبو سفيان) لرجاله وهو يقول :

- أنزلوه حققوا له طلبه .

وعندما هم (حجيراً) بالاعتراض أخرسته إشارة من يد كبير قومه .

ففكوا وثاقه فصلى ركعتين خفيفتين وقام فنظر للقوم المجتمعين حوله وقال:

- لولا أن تظنوا أني أخاف الموت لأطلت فيها ما شاء الله أن أطيل أعادوا وثاقه إلي النخلة فرفع رأسه إلى السماء وهو يقول :

- اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا .

فأدخل دعاءه الرعب في قلوب القوم وانبطحوا أرضاً خوفاً أن تصيبهم دعوته فلما رأى ذلك تبسم قائلا :

- اللهم بلغ عنى رسولك ما فعلت.

وفي نفس اللحظة وبينما هو جالس بين أصحابه نزل(جبريل) ليبلغ رسول الله بما حدث لـ(خبيب) وهم يقتلونه فأمر رسول الله (عمرو بن أمية) أن يحضر جثة (خبيب) من مكة حتى يدفن بين أصحابه في المدينة .

ولم يتأخـــر في تلبية الأمـــر ففي نفس الليلة دخـــل (عمرو) إلى مكة متســـتراً بظلمة الليل وصعد إلى النخلة التي كان مقيدا إليها (خبيب) بعـــد أن تركوا جثتـــه معلقة وفك وثاقه فتهـــاوي إلي الأرض فنزل (عمرو) مســـرعاً من علـــى النخلة وبحث عنـــه في كل مكان فلم يجده فأصابه الجزع هل غافله أحدهم وســـرق الجثـــة ليمثل بها ؟!! ولما غلبه التعب جلس ليراقب المكان وانتظر حتى حل الصباح ليتابع البحث ولكنه لم يجـــده ولما أضناه البحث وخاف أن يـــراه احد الكفار عاد إلى المدينة لا يعلم ما يقول لرسول الله

فلما دخل على رسول الله وقص عليه ما جرى وجده يبتسم و يقول:

- لا عليك يا (عمرو) لقد دفنته الملائكة .

وتلك كرامة أخرى .....

***

الحكاية الخامسة

(الحضرمي)

كانت ليلة مقمـــرة من ليالي المدينـــة وكان الرجال ملتفون حول (أبا هريرة) يســـمعون منه أحاديث نبيهم وأحاديث اليهود فقد كان من المشـــهور عنه أنه حكّاء المدينة الأول وحافظ سير اليهود والأقوام الغابرة فهو تلميذ (كعـــب الأحبار) وراوي قصصه الأول .

كان الكل صامتاً يســـتمع إلى (أبي هريرة) حتى قطع صمتهم رجلاً من القوم قائلاً :

- حدثنا عن رجل من صحابة رسول الله لا تنسى له فعلا قط .

صمـــت (أبو هريـــرة) قليلا وترقرقـــت عيناه بالدمـــوع وكان كأنه يســـتجمع بقايا من أيام لن تعود ورجال ليس كمثلهم شـــيء ثم أطلق زفرة تحمل كل المشـــاعر التي تجـــول في خاطره وقال :

- انه (الحضرمي) لقد تبعتـــه فرأيت منه ثلاث خصال لا ادري أيتهن أعجب !!

قال الرجل في فضول:

- قص علينا من نبأه شيئاً أثابك الله .

نظر (أبو هريرة) إلى القمر المكتمل في السماء يستعيد خطوط قصته من بين ركام ألاف القصص التي يحفظها فلما استعادها وأصبحت جلية أمام عينه وكأنه يراها رأى العين بدأ يحكى .

«كان (الحضرمي) صحابي مقرب من رسول الله ومن كتبة الوحي وقد بعثه رسول الله سفيراً وأميراً وجابياً ومجاهداً وقائداً إلى إقليم البحرين ومن ثم تولى حكم الإقليم بعد وفاة حاكمه .

ثم عاد إلى المدينة يرافق رسول الله في أيامه الأخيرة حتى وافته المنية .

ولما تولى (أبا بكر) الخلافة وبدأت حروب الردة وكان من بين البلاد التي عادت عن إسلامها البحرين فأرسل له (أبو بكر) فلما مثل بين يديه قال :

- إني وجدتك من عمّال رسول الله الذين ولّى، فرأيت أن أولّيك ما كان الرسول ولاّك، فعليك بتقوى الله .

فخرج (الحضرمي) في ستة عشر راكباً على أن ينفر معه كل من مرَّ به من المسلمين إلى عدوّهم .

فسار العلاء فيمن تبعه منهم حتى نزل بحصن - جواثا - فقاتلهم، فلم يفلت منهم أحداً، ثم أتى القطيف وبها جمعٌ من العجم، فقاتلهم فأصاب منهم طرفاً، وانهزموا فانضمّت الأعاجم إلى الزارة، فأتاهم (العلاء) فنزل الخط على ساحل البحر فقاتلهم وحاصرهم وباتوا متجاورين ولم يستقر الناس على الأرض حتى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش وخيامهم وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيء سوى ثيابهم ولم يقدروا منها على بعير واحد، فركب الناس من الهمّ والغمّ ما لا يحد ولا يُوصف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعض، فنادى مُنادي (الحضرمي) أن اجتمعوا، فاجتمع الناس إليه فقال :

- أيها الناس ألستم مسلمين ؟ ألستم في سبيل الله ؟ ألستم أنصار الله ؟

قالوا :

– بلى .

فقال :

– أبشروا، فو الله لا يخذل الله مَن كان في مثل حالكم .

ونـــوديَ بصلاة الفجر، فصلى بالناس، فلمـــا قضى الصلاة جَثَا على ركبتيه وجَثا الناس، ونَصب في الدعاء، ورفع يديه، وفعل الناس مثله حتى طلعت الشـــمس، وجعل الناس ينظرون إلى سراب الشمس يلمع مرّة بعد أخرى، وهو يجتهد بالدعاء، فلما بلغ الثالثة إذا قد خلق الله إلى جانبهم غديراً عظيماً من الماء، فمشـــى ومشى الناس إليه فشربوا واغتسلوا، فما تعالى النّهار حتى أقبلت الإبل من كل فجّ بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم خردلاً، إلا رجل نسى شيئاً من متاعه فرجع وأخذه ولم يجد الماء .

ســـكت (أبو هريرة) هنيهة يســـتعيد فيها جمال تلك الذكرى حتى قاطع أفكاره رجل يجلس بجواره قائلاً في شـــغف :

– تلك كانت الأولى يا (أبا هريرة) فما الثانية ؟

تابع الراوي مجيباً :

– الثانية كانـــت الدليل على أن هذا الرجل حقاً صاحب كرامة وأنه نقيّ تقيّ مجاب الدعوة قالها ثم استرســـل في حكيه .

«بينما المسلمون في الليل إذ سمع العلاء أصواتاً عاليةً في جيش المرتدين .

فقال :

– مَنْ منكم يكشف لنا خبر هؤلاء .

فقام (عبد الله بن حذف)، فدخل فيهم فوجدهم سُكارى لا يعقلون من الشراب، فرجع إليه فأخبره.

فركب (الحضرمي) من فوره والجيش معه، وأغاروا عليهم فقتلوهم قتلاً، وقلّ من هرب منهم، واستولى على جميع أموالهم وأثقالهم، فكانت غنيمةً عظيمةً، ثم ركب المسلمون في آثار المنهزمين يقتلونهم بكل مرصد وطريق حتى بلغوا البحر .

فوجد باقي من فر وهرب يركب السفن وقد بعد عن الشاطئ بمسافة يصعب معها إدراكهم لو أنتظر حتى يركب جيشه السفن المتبقية ليلحق بهم .

فنظر إلى الرجال الذين معه ثم أقتحم البحر بفرسه وهو يهتف قائلاً :

- يا أرحم الراحمين يا حكيم يا كريم يا أحد يا صمد يا حيُّ يا مُحيي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت يا ربّنا .

فلما رأى الجيش فعله فعلوا كما فعل وقالوا مثل ما قال فاجتاز بهم الخليج بإذن الله تعالى يمشون على ما يشبه رملٍ دَمِثة فوقها ماءٌ لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى ركب الخيل، ومسيرته للسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الساحل الآخر، فقاتل عدوّه وقهرهم، واجتاز غنائمهم ثم رجع فقطعه إلى الجانب الآخر فعاد إلى موضعه الأول، وذلك كله في يوم، ولم يترك من العدو مخبراً، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً سوى عليقه فرس لرجل من المسلمين ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها !!

سكت (أبو هريرة) وهو يتذكر إنشاد (عفيف بن المنذر) يومها قائلاً :

أَلَمْ تَرَ أنّ الله ذَلّلَ بَحْرَهُ وأنزلَ بالكُفّارِ إحدى الجلائلِ
دَعُوْناَ إلى شقِّ البحارِ فجاءنا بأعْجَبَ مِنْ فَلْقِ البحار الأوائلِ

من بعد هذا الفتح العظيم أرسل له (عمر بن الخطاب) وقد كان تولى الحكم بعد وفاة (أبو بكر) كتاباً يقول فيه :

«أن سِـــرْ إلى (عُتبة بن غزوان) فقد وَلّيتُك عملهُ، واعلم أنّك تقدم على رجل من المهاجرين الأوّليين الذين ســبقت لهم من الله الحُسْنَى، لم أعزلْهُ إلا أن يكون عفيفاً صليباً شــديد البأس، ولكنّي ظننتُ أنّك أغنى عنَ المسلمين في تلك الناحية منه فاعرف له حقّه، وقد ولّيتُ قبلك رجلاً فمــات قبل أن يصلى، فإن يُرد الله أن تَلِيَ وَليتَ وإن يُرد الله أن يَلِيَ عُتبة، فالخلق والأمر لله رب العالمــين، واعلم أن أمر الله محفوظ بحفظه الذي أنزله، فانظــر الذي خُلِقْتَ له فاكْدَح له ودَعْ ما ســواه، فإن الدنيا أمدٌ والآخرة مدَدٌ، فلا يشــغلَنّك شيءٌ مُدْبِرٌ خيره عن شيءٍ باقٍ شرّه، واهرب إلى الله من ســخطه، فإن الله يجمع لمن شــاء الفضيلة في حُكمه وعلمه، نســأل الله لنا ولكَ العونَ على طاعته والنّجاة من عذابه «.

فتحــرك (الحضرمي) بمن معه من رجال إلى حيث أمره أمير المؤمنين وكان يعلم بداخله أن (عمر) كتب له هذا الكتاب كأنه يرثاه وينعى له نفســه وأن الأجل قد حان ولم تمر الأيام حتى مرض (الحضرمي) مرضاً شديداً فكان الألم معه لا يتركه ساعة ،حتى مات فغسله صاحبه وكفنه وصلى عليه ودفنه .

فلما تحركنا تلاوم القوم على دفنه وقالوا :

- ينبشه كلب أو سبع .

فعدنا إلى قبره وكشفنا عنه التراب ... فلم نجده .

قالها (أبو هريرة) ثم أبتسم قائلاً :

- وتلك كانت الثالثة .

وتلك كرامة أخرى ...

***

الحكاية السادسة

(أويس)

بيت صغير فقير يغزوه التقشف علي أطراف ضاحية من ضواحي الكوفة.. من الوهلة الأولى التي تراه فيها تعلم يقيناً أن من يسكنه لا يملك من الدنيا إلا اقل القليل ..إذا دلفت من بابه المتهالك ستجد عجوزاً منكمشة مستلقية على فراش خشن يعتبر الأكثر ترفا بين ما يحويه البيت بيد أنه لا يكاد يحميها من قسوة الأرض إلا بقليل من جريد النخل، وتحت قدميها وجد بساط من خيش هجره صاحبه ليلا ليقوم في ركن مظلم من الدار يصلى في خشوع ويبتهل إلى ربه فيهمس إلي الأرض لتسمعه السماء .. كان قد لفظه أهل الكوفة وكرهه أقاربه ونعتوه بما ليس فيه لأنه لا يقول إلا الحق ولا يشهد إلا بالحق ولو كان في الباطل نجاته هو او اقرب الأقربين .. فنبذه الناس وتجنبوه وجعلوه من أصاغرهم ذليل مهان فهو الأبرص الفقير الوحيد وسط الأهل .. كان إذا أمسى يقول: « هذه ليلة الركوع « فيركع حتى يصبح، وكان إذا أمسى في ليلة أخرى يقول : «هذه ليلة السجود « فيسجد حتى يصبح .

وكان إذا أصبح تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب ثم قال : «اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريا فلا تؤاخذني به».

إنه (أويس القرني) الرجل الذي قال عنه رسول الله :

- «إن من أمتي من لا يستطيع أن يأتي مسجده أو مصلاه من العري يحجزه إيمانه أن يسأل الناس، منهم (أويس القرني)» .

عند الصباح تجد (أويس) البار بأمه القائم على خدمتها الذي يحملها على كتفيه حتى الخلاء لتقضى حاجاتها فتقول له :

- أثقلت عليك يا (أويس) .

فيركع بين يديها ويقبل قدميها وهو يقول :

- والله الذي لا إله إلا هو لأحملنّكِ على كتفي ولو كنت زاحفا .

فتدعى له بعدد أنفاسها ونبض قلبها .

حتى إذا فرغ من العناية بها تركها قليلا لقضاء حاجاتهم والسعي لرزق يومه ويعود إليها مسرعا، لا يحادث أحدا ولا يقربه احد ..

حتي رق لحاله أحدهم وسأله عن حاله قائلا :

- كيف أصبحت؟

يقول :

- أصبحت أحمد الله عز وجل .

فيعود ليسأله :

- كيف الزمان عليك؟

فيجيب :

- كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح، فمبشر بالجنة أو مبشر بالنار . يا أخا مراد، إن الموت

وذكـــره لم يترك لمؤمن فرحا، وإن علمـــه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضة ولا ذهبـــا، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقا .

فيقول الرجل :

- أولم يكن بك برص ؟

فيومئ اويس إيجابا ويقول :

- بلى، ولكن دعيت ربى أن يشفيني إلا موضع درهم حتى أتذكر نعمته على !!

فيتركـــه الرجل وهو يبكى ... ثم يحكى عن حاله لرجل محدث من الكوفة فيذهب إلى داره وينادى عليه قائلا :

- يا (أويس) ما منعك عنا يا رجل ؟

قال اويس في خجل:

- العرى فأنا لا أملك ما أســـتر به نفسي وسخرية أصحابي وأذيتهم لي .

قال الرجل :

- خذ هذا البرد فالبسه .

فرده اويس قائلا :

- لا تفعل، فإنهم إذًا يؤذونني إذا رأوه .

أصر الرجل :

- أقسم عليك بالله أن تلبسه .

فلبسه وخرج عليهم، فقالوا ساخرين :

- مَن ترون خدع (أويس) عن برده هذا .

فعاد (أويس) إلى الرجل فوضع عنه برده وقال :

- أرأيت ما أرى؟ !

وبعيدا في أرض أخرى ... كانت مكة تتزين لاستقبال الحجيج ... الكل يعمل على خدمة زوار البيت الحرام لا يشغل بالهم إلا راحة الحجاج وتلبية احتياجاته .

كان أمير المؤمنين (عمر) يمر على القوافل والوفود من الحجيج يسأل عن حال هذا وعن بلد ذاك حتى دخل على قوم مجتمعين في حلقات صغيرة فتوجه نحو اول حلقة وألقى عليهم السلام ثم قال :

- من أين مقدمكم ؟

قالوا :

- من اليمن .

بش وجه (عمر) واخذ ينظر فيهم يبحث في وجوههم ثم قال :

- أفيكم (أويس القرني) ؟

حل الصمت ولم يجب احد .. فعاد أمير المؤمنين ليسأل :

- أفيكم من يعرفه ؟

فقالوا في حيره متعجبين من اللهفة البادية علي وجه (عمر) :

- ليس فينا يا أمير المؤمنين.

فيمر (عمر) بغيرهم ويسأل :

– أفيكم من يعرف (أويس) ؟

فيجيب الجميع أن لا، وظل علي سـؤالهم حتـى أجابه رجل يجلس وسـط قوم ويبدو عليه انه كبيرهم:

– نعم يا أمير المؤمنين إنه ابن عم لي .

قال (عمر) في لهفة ويعود ليبحث في الوجوه :

– أهو معكم ؟

هز الجمع رؤوسهم أن لا وعلت التمتمة النافية فأجاب الرجل في حيرة وبشيء من الازدراء:

– لا هو رجل نذل فاسد تركناه خلفنا رث البيت قليل المتاع .

انزعج (عمر) وعلا صوته وهو يقول :

– ويلك هلكت، ويلك هلكت

ثم هز رأسه أسفا وزعق في الرجل قائلا :

– إذا قدمت إلي دياركم، فأقرئه مني السلام ومُرهُ فليفد إلي .

ثم تركهم وانصرف إلى غيرهم متابعاً تجواله بين الناس .

تمـر أيام الحج ويعود الرجل إلى الكوفة فلا يضع عنه ثيابه حتى أتى المسجد فرأى (أويس) فجرى عليه قائلا :

– استغفر لي يا ابن عمي .

قال (أويس):

– غفر الله لكَ يا ابن عم .

قال الرجل :

- أما أنت فقد غفر الله لكَ يا أويس، إن أمير المؤمنين يقرئك السلام،

قال (أويس) :

- ومن ذكرني عند أمير المؤمنين؟

قال :

- هو ذكرك وسأل عنك وأمرني أن أبلغك أن تفد إليه في مكة .

قال (أويس) :

- سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين .

وحمل ما يتزود به في سفره وتوجه صوب مكة حتى إذا بلغ ديارها سأل عن دار (ابن الخطاب) ولما أدركها وجد صاحبها وقد شغلته أمور الخلافة فأخبر غلامه انه وافد من الكوفة بأمر من أمير المؤمنين .. فلما بلغه أمر القادم خرج له (عمر) قائلا :

- هل أنت (أويس بن عامر)؟

قال (اويس) :

- نعم

قال وهو يتأمل الجسد الضامر والثياب البالية :

- من مراد ثم من قرن؟

قال (اويس) :

- نعم

قال وهو يبحث في وجهه وكفيه :

- هل فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟

قال (اويس) :

- نعم

قال (عمر) متابعاً أسئلته :

- ألك والدة؟

قال (اويس) وقد حيره أمر خليفته :

- نعم

قال (عمر) وقد أدرك حيرة صاحبه :

- سمعت رسول الله يقول: « يأتي عليكم (أويس بن عامر) مع أمداد أهل اليمـــن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره؛ فإن استطعت أن يستغفر لكَ فافعل» .

ثم صمت قليلا وهو يقول :

- فاستغفر لي يا بن عامر .

قال أويس بدهشة بادية:

- أمثلي يستغفر لمثلك يا أمير المؤمنين !!

قال (ابن الخطاب) :

- ورب الكعبة أنت لا تعلم ما بك من خير .

فلما ادرك مدى جدية صاحبه فتمتم مستغفرا الله لنفسه ثم قال :

- غفر الله لك يا امير المؤمنين .

ثم حمل متاعه وهم بالرحيل .. فاستوقفه (عمر) ليسأله :

- إلي أين تريد ؟

قال (أويس) :

- إلى الكعبة لأصلي ومنها الي داري باليمن

قال (عمر):

- دعني أكتب لك إلى عاملها؟

قال (اويس) رافضاً وقد زاد شحوب وجهه :

- لا أحب أن أكون في غبراء الناس.

ثم ألقى السلام وغادر عائداً إلى اليمن ومكث فيها حتى مات، فلما دخلوا عليه ليكفنوه وجدوه في كفنه وحوله أكفان لا يعلم أحد من أين أتت .

وتلك كرامة أخري .....

***

الحكاية السابعة

(عثمان بن مظعون)

كانت شمس مكة الحارقة تسكن كبد السماء وغبار الصحراء يلفح الوجوه الغاضبة الحانقة على (محمد) صلى الله عليه وسلم وأتباعه، كل شـــيء في مكة تغير حتى أهلها فالناس في مكة أما مُعذِبٌ أو مُعَذَب إلاي ؛ فأنـــا أعيش في كنف صاحبي مذ عدتُ من الحبشـــة، لا يصيبني عذاب ولا تشـــوكني شـــوكة من كافر، أمر بأصحابي في الغدو والرواح وهم في البلاء وأنا مُنَعَم ... وهنا وصلت افكاره إلى شـــفتيه فعلا صوته قائلا لصاحبه الجالس بجواره :

— والله لا يبقى هذا الأمر بعد اليوم أبدا !!

التفت إليه (الوليد بن المغيرة) سائلا ومتعجبا :

— أتقول شيئاً يا (عثمان) ؟

قال (عثمان) وهو ينظر إليه في حزم و لا يكاد يميز أحرف كلماته من سرعة تدفقها وشدة ما يعتمل في صدره من غضب :

— يا أبا عبد شمس وفيت ذمتك ولقد رددت إليك جوارك .

قام (الوليد) من مجلســـه واقترب من (عثمان) وانحني عليه يستحثه أن يهدأ واضعا راحتاه علي كتفيه قائلا :

- ولم ذاك يا ابن أخي ؟ لعله آذاك أحد من قومي .

أزاح (عثمان) يد (الوليد) وهو يقول :

- لا لم يؤذنـــي احد في بدني .. ولكنني لا أرضى إلا بجوار الله ولا أريد أن أستجير بمن دونه .

ســـحب (الوليد) يداه واستقام في ســـرعة وكأنما لدغه عقرب وقد اســـتبد به الغضب في اول وهلة ولمعت عيناه:

- جوار الله !! هي كذلك اذاً... قالها بخفوت وقد تبين الأمر ثم هدأ غضبه فأومأ قائلاً في خبث ظانـــاً بأن ابن اخيه لن يجرؤ علي فعل ما يقول :

- يا (عثمان) انطلق إلى الكعبة واجمع الناس وســـادة قريش الغاضبين علـــي اصحابك وأردد على جواري علانية كما أجرتك علانية .

أومـــأ (عثمان) في راحة وهب من مقامه وقد ازاح عن صدره ثقل جوار غير الله .

وانطلقا ســـوياً نحو الكعبة حتى إذا وصلا جمع (الوليد) الناس وراح يقول :

- يا أيها الناس هذا (عثمان بن مظعون) قد جاء يخبركم امراً.

ونظر إلي (عثمان) في لؤم وكأنه يســـأله أوا تجرؤ علي اخبار هؤلاء ما اخبرتني اياه.

فقال (عثمان) :

- صدق (الوليد) وقد وجدته وفياً كريم الجوار ولكنى قد أحببت أن لا أستجير بغير الله فقد رددت إليه جواره .

فقام له (لبيد بن ربيعه) يناشـــده بحـــق الصداقة التي بينهم أن يأتي معـــه فذهب معه (عثمان) فجلس به بين جمـــع من أصحابه فقال له :

- يا (عثمان) ألا كل شيء ما خلى لله باطل .

قال (عثمان) :

- صدقت .

فأكمل (لبيد) :

- وكل نعيم لا محالة زائل .

قال (عثمان) :

- كذبت، نعيم أهل الجنة لا يزول .

فقام له رجل من القوم فأمسك بتلابيبه وهو يقول :

- أن هذا سفيه من سفهاء القوم الذين تركوا ديننا .

فرد عليه عثمان قوله حتى صار ســـجالاً وعظم أمرهم فلطم الرجل عين (عثمان) حتـــى اخضرت عينه اليمنى وذهب نورها .

كل هـــذا و (الوليد بن المغيرة) قريب يرى مـــا بلغ من عثمان فلما انفض الجمع وانصـــرف القوم قال يعاتبه :

- أمـــا والله يا ابن أخي كانت عينك عما أصابها غنية، فقد كنت في ذمة منيعة .

فقال (عثمان) بقوة :

- كلا والله إن عيـــني الصحيحة لفقيرة إلى ما أصاب أختها، وانى لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس .

فتركه (الوليد) يلملم شعثه وجراحه وحده وغادر خلف قومه يتأسى علي عز وجاه صارا إلى زوال .

مرت الأيام وهاجر (عثمان) إلى يثرب واستقر جوار رسول الله وشهد معه بدرا، وكان لا ينفك ساعة من التعبد والصلاة والصوم .

حتى أن (عائشة) قالت يوما لرسول الله :

- إن (عثمان بن مظعون) من أشد الناس اجتهادًا في العبادة، يصوم النهار ويقوم الليل، ويجتنب الشهوات، ويعتزل النساء إلى أن جاءتني اليوم زوجه شاكية .

فأرسل إليه رسول الله يطلبه، فلما حضر بين يديه قال له :

- أليس لك فيّ أسوة حسنة .

فقال بلا تردد :

- بأبي انت وأمي يا رسول الله.

قال صلى الله عليه وسلم :

- أتصوم النهار وتقوم الليل وذلك كل يوم ؟!

قال بقوة :

- واللهِ إنّي لأفعل .

فقال النبي :

- لا تفعل، فأنا أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوّجُ النّسَاءَ يا عثمان إنّ لعينيك عليك حقّاً، وإن لجسدك حقّاً، وإن لأهلك حقّاً، فصلّ ونمْ، وصُم وأفطر .

فخرج (عثمان) من عنده وعاد إلى بيته وزوجه، فلما عاد رسول الله

في اليوم التالي وســـأل (عائشة) عن حال زوجة (عثمان) فقالت ضاحكة :

- عادت إلينا بعد الذى كان بينك وبين (عثمان) عطرة كأنها عروس .

فدعا له رسول الله ثم قال :

- يا (عائشة) أن (ابن مظعون) لَحَيٌّ سِتّير .

مرت الأيام والشهور وحان وقت الرحيل مات (عثمان بن مظعون) وعلم رســـول الله فذهب إلى بيته فأكب عليه يقبله ودموعه تســـيل على خد (عثمان) ويقول :

- رحمك الله يا عثمان، ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك شيئا.

فقالت زوجته :

- هنيئا لك أبا السائب الجنة .

فقال لها رسول الله:

- وما يدريك ؟

فقالت :

- يا رسول الله فارسك وصاحبك كان يصوم النهار ويصلي الليل.

فقال :

- أنا رسول الله والله ما أدري ما يصنع بي، أما هو فقد جاءه اليقين .

ثم قام وحمل جســـد (عثمان) الطاهر هو وأصحابه ودفنه ولما انتهى الدفن، قال النبي صلى الله عليه وآله وســـلم لأحدهم :

- هلـــم تلك الصخرة فاجعلها عند قبر أخي أعرفه بها، أدفن إليه من دفنت من أهلي .

وكان رســـول الله صلى الله عليه و آله وســـلم يـــزور قبر (عثمان بن مظعـــون) ولما ماتت (رقية) ابنة رســـول الله قال :

- الحقي بسلفنا الخير الصالح (عثمان بن مظعون).

وفى صباح احد الايام جاءته زوجة (عثمان) تقص عليه رؤية رأتها فى منامها فقالت :

- يا رسول الله نمت فرأيت (لعثمان) عين تجرى من لبن وعسل وريحها كالمسك المعتق .

فقال رسول الله :

- والله هذا عمله ... والله هذا عمله .

فأنشدت قائله :

يا عينُ جودي بدمعٍ غير ممنُونِ
على رزية عثمان بن مظعـون
على امرئً في رضوانِ خالقه
طُوبى له من فقيد الشخص مدفونِ
طاب البقيـعُ له سكنى ومرقده
وأشرقتْ أرضُهُ من بعد تعييـن
وأورثَ القلبَ حُزْناً لا انقطاع له
حتى الممات فما تَرقَى له شوني.

وتلك كرامة أخري .....

***

الحكاية الثامنة

(زين العابدين)

لما عاد جيش المسلمين من أرض فارس منتصراً محملاً بالغنائم والسبايا، تنحى (عمر) بوزيره (على بن ابى طالب) وقال له :

- أشار على أحد الرجال أن نبيع النساء ونجعل الرجال عبيداً فما تقول أنت يا (على) ؟

قال (على) :

- والله لا يكون .. وقد قال رسول الله من قبل أكرموا كريم كلّ قوم .

فقال (عمر) وهو يومئ مؤيداً لما قال (على) :

- وقد سمعته يقول إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وإن خالفكم .

أحس (على) براحة بعد ما سمع تأييد (عمر) لكلامه فعاد إلى الناس مخاطباً فيهم :

- يا أيها الناس هؤلاء قوم قد ألقوا إليكم السلم ورغبوا في الإسلام، ولا بدّ أن يكون لي فيهم ذرّية، وأنا أُشهد الله وأُشهدكم أنّي قد أعتقت نصيبي منهم لوجه الله .

قال (عمر) :

- وأنا قد وهبت لله ولك يا (أبا الحسن) ما يخصّني وسائر ما لم يوهب لك .

فقال (علي) :

- اللّهم اشهد على ما قال وعلى عتقي إياهم .

ولما رغب جماعة من قريش في أن يستنكحوا النساء، قال (علي) :

- هنّ لا يُكرهنَ على ذلك، ولكن يخيّرنَ وما اخترنه عُمل به.

فأشار جماعة إلى (سلافه) بنت كسرى وكانت جميلة المظهر ومثال حقيقي لعظمة وأبهة القيم الملكية، وكانت لما دخلت المدينة خرجن بنات المدينة صفا لرؤيتها وقد أضاء المسجد من شعاع نور وجهها فخُيّرت وخوطبت من وراء الحجاب والجمع حضور، فقيل لها:

- هل أنت ممّن تريدين بعلاً؟

فسكتت، فقال أمير المؤمنين:

- قد أرادت وبقي الاختيار .

ثم نظر إليها وأكمل قائلا :

- اختاري يا سيدة قومك .

فأشارت بيدها نحو الإمام الحسين بن علي، فأُعيد القول عليها في التخيير، فأشارت بيدها وقالت:

- هذا إن كنت مخيّرة.

وجعلت (علي بن أبي طالب) وليّها، والذي مال على ولده (الحسين) قائلا :

- خذها فستلد لك سيداً في العرب وسيداً في العجم وسيداً في الدنيا والآخرة .

فتزوّجها الحسين، وأنجبت له (زين العابدين)، والذي أنشد أبو الأسود الدؤلي في وصف (زين العابدين) :

وإنّ غلاماً بين كسرى وهاشمٍ لأكرم من نيطت عليه التمائمُ.

ولد (زين العابدين) في بيت السيدة (فاطمة الزهراء) رضي الله عنها وفرح جده به فرحاً شديداً وكان حريصاً عليه كل الحرص فرباه وأحسن تأديبه وعلمه من علمه وما فتح الله عليه حتى ضرب المثل بعلمه وفقهه فقد قال عنه (علي بن سعيد) :

- إنه أفضل هاشمي فقهاً وورعاً .

وقد كان اذا قام إلى الصلاة أصابته رجفة ورعدة ما بين وضوؤه وصلاته فلما سُأل عنها قال :

- ويحكم أتدرون إلى من أقوم ؟ ومن أريد أن أناجى .

ولكن الأيام تتبدل ولا يبقى حال الأمس إلى اليوم إلا فيما ندر واليوم يوم مذبحة (كربلاء)، يوم أسود فى تاريخ الأمة قُتل فيه كل ذكور آل البيت على يد جنود (يزيد بن معاوية) وقد كادوا أن يقتلوا (زين العابدين) وهو مريض فقد أراد (شمر بن ذي الجوشن) أن يقتله لولا أن قال له (حميد بن مسلم) :

- سبحان الله أتقتل الصبيان لا يدخلن بيت النسوة أحد ولا يتعرض لهذا الغلام المريض أحد.

وقد كانت نجاته رضي الله عنه من مذبحة كربلاء بسبب مرض ألم به فكان طريح الفراش داخل مخيم المسلمين وقد حمل إلى (عبيد الله بن زياد) والي الكوفة في هذا الوقت مع السبايا.

وهناك كان الجند متربص به فأرادوا قتله خشـــية أن يكون شوكة في نحورهم في يوم من الأيام . إلا أن السيدة (زينب) احتضنت ابن أخيها ودخلت الكوفة في ركب السبايا و الأسيرات، و قد وقفت الجموع محتشدة تشهد هذا الركب الرهيب. فنظرت إليهم السيدة زينب و ألقت عليم قولاً ثقيلا وقالت ل (عبيد الله بن زياد) لما هم بقتل ابن اخيها :

- حسبك يا (ابن زياد) أما رويت من دمائنا وهل أبقيت على أحدا غير هذا؟ والله لا أفارقنه فإن قتلته فاقتلني معه.

فقال (زين العابدين) بشـــجاعة لا تتناسب مع حجم المرض والحالة التى هو عليها :

- أبالقتـــل تهددني يا (ابن زياد) أما علمـــت أن لقتلنا عادة وكرامتنا الشهادة؟

فينظر لهما (ابن زياد) فى تعجب ويقول للسيدة (زينب):

- عجبا لصلـــة الرحم والله إني أظنها تود أن اقتلها معه، دعوه ينطلق مع النساء .

ولما وصل الموكب إلي الشام سألها الخليفة يزيد بن معاوية عن المكان الذي تختاره لإقامتها فاختارت المدينة المنورة، فعادت اليها ومعها سيدات أهل البيت بالإضافة إلى الزهرة التي بقيت من صلب الإمام الحسين، (علي زين العابدين) رضي الله تعالى عنهما، و لكن وجودها في المدينة أجج نيران الثـــورة ضد الخلافة الأموية، و ضيق عليهـــا الأمويون الخناق في مدينة جدها رسول الله وأمها فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها، وخيّرها أين

تذهب في أرض الله الواســـعة، فاختارت السيدة (زينب) أرض الكنانة مصر داراً لإقامتهـــا ومقامها، لما سمعته عن أهلهـــا الكرام وعن محبتهم لأهل البيت ومودتهم لذوي القربى من آل رسول الله .

وصلت الســـيدة زينب بنت علي إلي مصر و خرج لاســـتقبالها جموع المسلمين و علي رأســـهم والي مصر الأموي مسلمة بن مخلد الأنصاري. و أقامت الســـيدة زينب في بيت الوالي حتي وافتها المنية بعد عام واحد من قدومها إلي مصر .

وعاش (زين العابدين) فى كنف عمته ولما بلغ السابعة عشر من عمره تزوج من (فاطمة) بنت عمه (الحسن) بن علي بن أبي طالب) .

وسارت الحياة علي وتيرة واحدة.

حتى كان صباح يوم ....

مر على (زين العابدين) صاحبه (أبو حمزة) ولكنه كره أن يطرق عليه البـــاب فجلس على باب البيت ينتظر خـــروج (زين العابدين)، فلما خرج (علي) من بيته رأى صاحبه فسلم عليه ودعا لهه وسارا معاً يتحادثان حتي انتهيا إلى حائط فأشار إليه (زين العابدين) وقال :

- (يا أبا حمزة) أترى هذا الحائط ؟

قال صاحبه :

- نعم .

قال (زين العابدين) :

- أنى اتكأت عليه يوما وأنا حزين فإذا برجل حسن الوجه حسن الثياب يقبل عليّ وينظر في وجهى ثم يقول :

- يا (زيـــن العابدين) مالي أراك كئيباً حزيناً أعلى الدنيا تحزن؟ أنها رزق حاضر، يأكل منه البر والفاجر .

فقلت مستنكرا :

- ما عليها أحزن لأنها كما تقول .

فجلس بجواري وهو يقول :

- أعلى الآخرة ؟ هى وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر .

فقلت :

- ما عليها أحزن لأنها كما تقول .

فقال :

- وما حزنك يا ابن الحسين ؟

فالتفت إليه مجيباً :

- أخاف الفتنة !

فقال :

- هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ ثم خاف الله فلم يكفه ؟

قلت :

- لا .

قال :

- إن الله عاطيك وإن الله كافيك فلا تخف ولا تحزن .

ثم قام وغاب عنى كأن لم يكن .

فقال (أبو حمزة) :

- ومن كان الرجل ؟

قال (زين العابدين) :

- أنه الخضر جاء ليطمئن قلبى !!

ثم أشار إلى عصافير تطير من حوله فقال :

- يا (أبا حمزة) هل تدرى ما يقول هؤلاء العصافير ؟

قال :

- لا والله يا ابن رسول الله .

قال (زين العابدين) :

- تقدس ربها عز وجل وتسأله قوت يومها والله وكأني أسمع قولها .

لم يتعجب (أبا حمزة) من قول صاحبه فلقد اعتاد ان يسعي ليسمع ما يقول ولا يقوله سواه .

وبينما كان (زين العابدين) جالسا بين اصحابه يحادثهم عن رسول الله وعن اصحابه دخل عليه نفر من أهل العراق فلما سمعوا ما يقول قالوا في (أبى بكر) و (عمر) و (عثمان) قولاً غليظاً فاستمع لهم وما يقولون ولما فرغوا قال لهم (زين العابدين) :

- هلا أخبرتموني، أأنتم المهاجرون الأولون الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ؟

فنظروا إلى بعضهم وقالوا :

– لا ! .

قال :

– إذا فأنتـــم الذين تبوؤا الدار والإيمان مـــن قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

قالوا :

– لا ! .

فقام (زين العابدين) من مجلسه وهو يصيح فيهم قائلا :

– أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، فأنا أشـــهد أنكم لســـتم من الذين قال فيهم رب العزة :

«والذين جاءوا مـــن بعدهم يقولون ربنا اغفر لنـــا ولإخواننا الذين ســـبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غـــلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» .

ثم لوح بذراعه صارفا اياهم في غضب :

– اخرجوا فعل الله بكم كما فعل بقوم عاد .

وكان (زين العابدين) كثير البكاء لا يكاد يكف عنه فلما ســـئل عن ذلك قال :

– لا تلوموني فإن يعقوب فقد سبطاً من ولده فبكى حتى ابيضت عيناه ولم يعلم أنه مات، ولقد فقدت أربعة عشـــر رجـــلا من أهلي في ليلة واحدة أفترونَ حزنهم يذهب من قلبي ؟

ولما خرج (زين العابدين) إلى الحج وكان يحج في ذلك الوقت(هشام بن عبدالملك) قبل أن يتولى الخلافة وكان معروفاً عند الناس , فاجتهد أن يستلم الحجر فلم يمكنه، وجاء (زين العابدين) فوقف له الناس وتنحوا حتى استلمه فقال قومٌ من الشام (لهشام) :

- من هذا يا بن امير المؤمنين ؟

فقال :

- لا أعرفه ! .

فقال (الفرزدق) الذي كان بين مرافقيه :

- ولكنني أعرفه .

فقال (هشام) :

- ومن يكون ؟

فأنشد (الفرزدق) قائلا :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقي النقي الطاهر العلم

إذا رأته قريش قال قائلها

إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفان راحته

ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

يغضي حياء ويغضى من مهابته

فما يكلم إلا حين يبتسم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا ؟ بضائره

العرب تعرف أن أنكرت والعجم.

وكان (زين العابدين) يحمل جراب الخبز على ظهره ويمشـــى بالليل يتصدق به ويقول :

– إن صدقة السر تطفئ غضب الرب .

وكانت زوجته إذا دخلت عليه وجدت أثر الجراب على ظهره مما كان يحمل بالليل إلى المساكين.

وكان الناس في المدينة يعيشـــون لا يدرون من أين كان معاشـــهم ؟ حتـــى مات (زين العابديـــن) فقدوا ما كانوا يأتون بـــه في الليل فكانوا يقولون :

– ما فقدنا صدقة السر حتى مات (زين العابدين) .

وتلك كرامة أخري .....

***

الحكاية التاسعة

(طاوس بن كيسان)

عندما قرر أمير المؤمنين (سليمان بن عبد الملك) أن يحج ولما وصل إلى مشارف مكة أمر حاجبه أن يبحث له عن فقيهاً يسأله عن بعض المناسك، فخرج حاجبه يبحث في طرقات مكة عن فقيه يستطيع أن يقف بين يدى أمير المؤمنين ويفتيه، ظل يسأل الناس من أهل مكة حتى أشاروا له على رجل قائم يصلى وقالوا :

- انتظر هذا الرجل حتى يفرغ من صلاته ورب الكعبة أنه أفقهنا وأكثرنا علما .

بش الحاجب وسأل :

- ومن يكون ؟

فأجابه الرجل :

- أنه (طاوس بن كيسان) صديق (ابن عباس) وأكثر من روى عنه .

وقف الحاجب بجواره فلما فرغ من صلاته توجه نحوه وقال :

- السلام عليك يا(ابن كيسان)

فرد عليه (طاوس) سلامه واشار له بالجلوس ولكن ابى الحاجب وقال :

- إن أمـــير المؤمنين قال: ابغي إلي فقيها أســـأله عن بعض المناســـك وســـألت القوم عن فقيه فأرســـلوني إليك، فهلا اجبـــت أمير المؤمنين

فقال (طاوس) وهو يهز رأسه نافياً:

- اعفني .

تعجب الحاجب وسأل :

- ولمَ ؟!!

فأعادها طاوس :

- اعفني .

فغضب الحاجب وأبى الرفض جواباً وأمر الجند أن يأخذوه إلى مجلس أمير المؤمنين ،ولما وصلوا قال :

- أجلس هنا حتى أخبر أمير المؤمنين أنك حضرت .

فجلـــس وجلس بجواره غلام تبدو عليه ســـمـــة الرفاهية والتنعم فلم يلتفت إليه حتى خرج الحاجب من عند أمير المؤمنين فأشار إلى (طاوس) أن يقترب ثم مال عليه قائلا :

- جلس إليك ابن أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه !

قال (طاوس) :

- أردت أن يعلم أن لله عبادا يزهدون فيما في يديه .

ابتســـم الحاجب من مقالته ثم أدخله على أمير المؤمنين، فلما وقف بين يديه قال (طاوس) :

- إن هذا لمجلس يسألني الله عنه .

فأشار إليه (سليمان) بالجلوس وقال مستفهماً :

- وعن ماذا يسألك الله يا هذا ؟

فقال (طاوس) :

- يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جب في جهنم، هوت فيها سبعين خريفا، حتى استقرت قرارها، أتدري لمن أعدها الله ؟

قال (سليمان) وقد بانت على وجهه أمارات الخوف :

- لا ويلك لمن أعدها ؟

قال (طاوس) :

- لمن أشركه الله في حكمه فجار .

فقال (سليمان) في غضب :

- ويحك لا خير فيك .

فقال (طاوس) :

- يا أمير المؤمنين من قال وأتقى الله خير ممن صمت وأتقى الله .

فقال (سليمان) :

- حدثني بشيء سمعته من أصحاب رسول الله .

فقال (طاوس) :

حدثني أبو موسى الأشعري - رضي الله تعالى عنه - قال : قال رسول الله: «إن أهون الخلق على الله من ولي من أمر المسلمين شيئا فلم يعدل فيهم» .

فتغير وجه سليمان فأطرق طويلا، ثم رفع رأسه، فقال :

- حدثني بأخر .

فقال :

- حدثني رجل من أصحاب رسول الله : «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعام في مجلس من مجالس قريش، فقال : إن لكم على قريش حقا ولهم على الناس حق ما استرحموا فرحموا واستحكموا فعدلوا، وائتمنوا فأدوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا .»

فتغير وجه سليمان وأطرق طويلا ثم رفع رأسه فقال :

- حدثني بحديث أخر

فقال :

- حدثني ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - أن «آخر آية نزلت في كتاب الله تعالى : واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله .»

فبكى (سليمان بن عبد الملك) حتى أغرق الدمع لحيته، ثم نادى على حاجبه فلما دخل عليه قال:

- اصطحب هذا الرجل إلى حيث يريد وأعطه ما يسأل وزد عليه ضعفين .

فخرج الحاجب مع (طاوس) يصحبه إلى المكان الذى أتى به منه فمروا على غراب جالس فوق شجرة ينعب فقال الحاجب :

- خيرا .

فتوقف (طاوس) ونظر له بغضب قائلا :

- أي خير عند هذا أو شر؟ لا تصحبني .

ثم تركه وذهـــب إلى منزله فبينما هو جالس يقرأ في مصحفه سمع طرقـــاً على باب المنزل فلما خرج وجد أحد جند أمير المؤمنين على الباب وبيده صرة مملؤة بالمال فقال له (طاوس) :

- ماذا تريد ؟
- هذه عطية أمير المؤمنين لك .
- مالـــي إليها حاجة عد بها إلى أميرك وقـــل له نحن لا نبتغى عرض الدنيا .
- ولكنـــى لا أســـتطيع أن أعود بها فالقد أوصانـــي (أمير المؤمنين) أن تأخذا وأشـــتد على في ذلك .
- يا ولدى لا حاجة لنا لا بأميرك ولا ماله عد من حيث أتيت أكرمك الله .

قالها ثم أغلق الباب فلم يجد الجندي ســـبيل أمامه إلا أن يقفز من فوق السور ويلقى بالصرة في ركن المنزل الذى كان يجلس به (طاوس) لعله يراها ويأخذها .

مرت الأيام والشـــهور وفى ذات مســـاء حكى الجنـــدي لحاجب أمير المؤمنـــين ما حدث بينـــه وبين طاوس يوم ذهب لـــه بعطية أمير المؤمنين فتعجب الحاجب من فعله وأمر أحد الجند أن يذهب إلى منزل (طاوس) ويســـأله ماذا فعل بعطية أمير المؤمنين .

فذهب الجندي إلى منزل (طاوس) فلما خرج له قال :

- ماذا فعلت بعطية أمير المؤمنين التي أرسلها لك ؟
- أي عطية يا هذا لم نأخذ من مال أميركم شـــيء لقد رددنا له ماله في حينها .

فرجـــع الجندي إلى حاجب أمـــير المؤمنين وأخبره ما كان فأرســـل الحاجـــب إلى الجندي الذى ذهب بالمـــال في أول مرة وأخبره أن (طاوس) ينكـــر أنه أخذ المال واتهمه بســـرقة مال أمير المؤمنـــين وخيانته فترجاه الجنـــدي أن يذهب معه إلى منزل (طـــاوس) فذهب معه ودخلوا إلى بيت (طاوس) فوجـــدوا صرة المال في مكانها وقد أحـــاط بها العنكبوت .

وفى ذات يوم مر به (مجاهد) وهو علم من أعلام التابعين فقال :

- يا أبا عبد الرحمن رأيت في رؤياي أنك تصلى في الكعبة والنبي على بابها يقول : أكشف قناعك وبين قراءتك .

فقال له (طاوس) :

- أصمت لا يسمع هذا منك أحد يا (مجاهد) سامحك الله .

ثم ألتفت له مبتسما وهو يقول فى خفوت :

- أورب الكعبة كنت أنا .

فقال (مجاهد) :

- ورب الكعبة كنت أنت يا رجل .

فانصرف (طاوس) وهو يبتسم ويستغفر ربه .

وبينما هو منصرف من عند (مجاهد) قابله رجل فألقى عليه الســـلام وقال :

- يا أبا عبد الرحمن ماذا تقول في قول الله تعالى «كمثل الشـــيطان إذ قال للإنســـان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» ؟

قال (طاوس) :

- كان رجل من بنى إسرائيل يداوى من أصابهم الجنون بأذن الله وكانت امرأة جميلة يأخذها الجنون، فجيء بها إليه فتركت عنده، فأعجبته فوقع عليها فحملت، فجاءه الشيطان فقال : إن عُلم بها افتضحت، فاقتلها وادفنها في بيتك .

فقتلها ودفنها في بيته، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها فقال لهم : إنها ماتت فلم يتهموه لصلاحه وتقواه، فجاءهم الشيطان فقال: إنها لم تمت ولكن قد وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها في بيته في مكان كذا وكذا، فجاء أهلها فقالوا : ما نتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها؟ ومن كان معك ؟ ففتشوا بيته فوجدوها حيث دفنها، فأخذ فسجن، فجاءه الشيطان فقال : إن كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فاكفر بالله، فأطاع الشيطان فكفر بالله، فقتل، فتبرأ منه الشيطان حينئذ .

قال (طاوس) :

- فلا أعلم أن هذه الآية نزلت إلا فيه .

فقال الرجل :

- وماذا تقول في قوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون» ؟

- كان رجل له أربع بنين فمرض فقال أحدهم :

- إما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء.

فقالوا :

- مرضه وليس لك من ميراثه شيء . فمرضه حتى مات ولم يأخذ من ميراثه شيئا .

فأتي في النوم فقيل له :

- ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار .

فقال في نومه :

- أفيها بركة ؟

قالوا :

- لا .

فأصبح فذكر ذلك لامرأته، فقالت امرأته :

- خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش منها

فأبى، فلما أمسى أتي في النوم، فقيل له :

- ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير .

فقال :

- أفيها بركة ؟ فقالـــوا : لا، فلما أصبح قال ذلك لامرأته فقالت له مثل مقالتها الأولى، فأبى أن يأخذها، فأتي في الليلة الثالثة فقيل له :

- ائت مكان كذا وكذا فخذ منه دينارا، فقال : أفيه بركة ؟

قالوا : نعم ! فذهب فأخذه ثم خرج به إلى السوق فإذا هو برجل يحمل حوتين، فقال :

- بكم هما ؟

قـــال : بدينار، فأخذهما منه بدينار ثـــم انطلق بهما، فلما دخل بيته شق بطنهما فوجد في بطن كل واحدة منهما درة لم ير الناس مثلهما . فبعث الملك يطلب درة يشـــتريها فلم توجد إلا عنده فباعها بوقر ثلاثين

بغلا ذهبا، فلما رآها الملك قال :

- ما تصلح هذه إلا بأخت، اطلبوا أختها وإن أضعفتم، فجاءوه فقالوا :

- أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟

قال : وتفعلون ؟

قالوا : نعم !.... فأعطاهم إياها بضعف ما أخذوا الأولى .

فذلك من الذين أحسنوا الحسنة فزادهم الله .

فقال الرجل :

- والله مـــا فهمتها إلا منك الآن والله أنت أعلم أهل زمانك، أدعى لي يا سيدى فلقد مسنى الضر .

فقال له (طاوس) :

- يا أخي، ليس لك حاجة بدعائي ادع لنفســـك فإنه يجيب المضطر إذا دعاه .

فقال الرجل :

- أوصني .

فقال (طاوس) :

- يا أخي، صاحب العقلاء تنســـب إليهم وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال فتنســـب إليهم وإن لم تكن منهم، واعلم أن لكل شـــيء غاية، وغاية المرء حسن خلقه .

وتلك كرامة أخرى ....

***

الحكاية العاشرة

(عمر بن عبد العزيز)

كان الصبي (عمر) يجرى بين طرقات المدينة عائداً من بيت خاله الكبير(عبد الله بن عمر) والفرح يملأ قلبه منتشياً من روعة اللقاء ويبحث عمن يروى له ما جرى وما سمع فهو أحب الناس وأقربهم إليه ينتظر لقاءه كل يوم فقد كان يرى فيه القدوة والمثل وكان يطيعه في كل شيء ويسمع منه ويحفظ عنه وهو ما يزال بعد غلاماً صغيراً فلما دخل على أمه جلس عند قدميها ليلتقط انفاسه ثم يروى لها ما جرى فتدعو لأخيها وله، فيبادرها الصغير قائلاً :

- يا أماه، كم أحب أن أكون مثل خالي (عبد الله بن عمر).

فتأفف به مازحة فهو مازال غراً ساذجاً ليدري صعوبة ما يقول .. ومن ثم تقول له مداعبة بسخرية:

- اغرب عنى، أأنت تكون مثل خالك .!

يحدث هذا الحوار كل يوم بينهما، فهو لا يمل أن يكرر على مسامعها ما يتمنى وهى لا تكل أن تخبره بأنه حلم بعيد المنال أن يكون يوماً مثله فهو الكبير بن الأكابر العالم الزاهد الحافظ بن فاروق الأمة وأميرها .

وشب (عمر) وقد صار أبوه (عبد العزيز بن مروان) أميراً على مصر فما أن أستقر به المقام بعث برسالة إلى زوجته (أم عاصم) أن تقدم عليه بأولادها، فأتت عمها (عبد الله بن عمر) فأعلمته بكتاب زوجها (عبد العزيز) إليها، فقال لها :

- يا ابنة أخي، هو زوجك فالحقي به .

فلما أرادت الخروج قال لها :

- خلفي هذا الغلام عندنا - يريد (عمر) - فإنه أشبهكم بنا أهل البيت .

فخلفته عنده ولم تخالفه، فلما قدمت على (عبد العزيز) خرج في استقبال ولده فإذا هو لا يرى (عمر)، فقال لها:

- وأين عمر؟

فأخبرته خبر (عبد الله) وما سألها عن تركها إياه عنده لرعايته وتعليمه لشبهه بهم، فسرّ بذلك (عبد العزيز)، وكتب إلى أخيه الخليفة (عبد الملك بن مروان) يخبره بذلك، فكتب (عبد الملك) أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر.

وهكذا تربى عمر بين أخواله بالمدينة المنورة من أسرة (عمر بن الخطاب)، فارتوى منهم حتى أشتد عوده وأورقت شجرة علمه وأزهرت .

حتى أنه يوماً أمّ الصلاة بـ (أنس بن مالك) فقال عنه (أنس) :

- ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى.

ولمّا حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل (صالح بن كيسان) عن ابنه فقال :

- ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام .

وكان يحرص على التشبه بصلاة النبي أشد الحرص، فكان يُتمُّ الركوع والسجود ويخفِّف القيام والقعود .

مر الزمان وعمر ينهل من علم اساتذته من الصحابة والتابعين حتى تولى (الوليد بن عبد الملك) الخلافة وولى (عمر) أميراً على المدينة المنورة ثم ضم إليها الطائف فحكم فعدل حتى ولى (الوليد بن عبد الملك) لواء الحج لـ (الحجاج بن يوسف الثقفي) فطلب عمر اعفاءه من مرور الحجاج عليه فأمتثل الوليد لرغبة (عمر) وصارت الحجاز ملاذا للفارين من ظلم (الحجاج)الذى كتب إلى خليفته يشتكيه ويقول ان عمر سبب وهن لسلطة الخليفة فعزل الوليد (عمر) لميله إلى سياسة (الحجاج) في توطيد حكمه، فخرج (عمر بن عبد العزيز) من المدينة متوجهاً إلى دمشق حتى تولى (سليمان بن عبد الملك) الخلافة فقرب إليه عمر وجعله مستشاراً وظل قريباً منه طوال مدة خلافته .

وفى أحد الأيام وبينما (رباح) في المسجد منتظراً صلاة الفجر دخل (عمر) إلى المسجد ليصلى ومعه شيخ كبير السن مهيب المحيا يسير متكئاً على يد (عمر)، فلما رآه (رباح) سرت في جسده رجفة خفيفة وقد ارهبه حضور هذا الشيخ ولم يكن قد رآه من قبل فقال في نفسه عجباً :

- إن هذا الشيخ جاف مهيب.

فمكث في مكانه يتابعهما بعينيه حتى جلسا، ولما صلى توجه حيث جلسا فوجد (عمر) جالساً وحده ولا أثر للشيخ فقال :

- أصلح الله الأمير .

فرد (عمر) التحية ولكن (رباح) غلبه الفضول فسأل :

- اين ذلك الشيخ الذي دخل متكئا على يديك ؟ و من يكون ؟

قال (عمر) وقد بش وجهه وأضاء :

- أرأيته يا رباح ؟

فقال (رباح) متعجباً :

- نعم !

قال (عمر) مستحسناً :

- ما أحسبك يا (رباح) إلا رجلا صالحا .

وصمت قليلا ثم قال مبتسماً :

- ذاك أخي (الخضر) أتاني ليعلمني أني سألي أمر هذه الأمة، وأخبرني أن أعدل فيها .

فلما حانت صلاة الجمعة لبس (سليمان بن عبد الملك) أمير المؤمنين ثياباً خضراً من حرير، ونظر في المرآة وقد أعجبه حاله فقال في زهو:

- أنا والله الملك الشاب .

ولما خرج إلى الصلاة صلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك وبقي طريحاً للفراش أيام، فلما شعر بثقل المرض كتب كتاب عهده إلى ابنه (أيوب)، وهو غلام لم يبلغ، فقال له (سهيل بن أبي سهيل) وزيره وحاجبه :

- ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يُحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح.

فقال سليمان :

- هذا كتاب أستخير الله فيه وأنظر، فأنا لم أعزم عليه بعد .

فمكث يقلبها في ذهنه يوماً أو يومين، ثم خرق الكتاب و دعا (سهيل) لقدوم فينظر ماذا يرى، وعندما جلس بين يديه بادره السؤال:

- ما ترى في داود بن سليمان ؟

هز (سهيل) رأسه نافياً:

- هو غائب بقسطنطينية، ونحن لا ندري أحي هو أم ميت .

هز الخليفة رأسه في حيرة وسأل جليسه بعد برهة من الصمت:

- يا (سهيل) قل لي من ترى؟

قال (سهيل) في هدوء حازم :

- هذا رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من يُذكر.

قال (سليمان) فجأة وكأنه أُلهم لتوه السؤال :

- كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟

أومأ المستشار مستحسناً :

- والله لا أعلمنه إلا فاضلاً خياراً مسلماً .

أومأ امير المؤمنين موافقاً :

- هو على ذلك والله

صمت قليلا وقد بدا علي محياه سمة التفكير وقال راويا لجليسه وكأنه يوثق افكاره :

- لقد كنت معه في الحج، فلما أشرفنا على أرض بها أبنية، فأعجبني ما رأيت من حجرها، فقلت:

- كيف ترى ما هاهنا يا عمر ؟

قال :

- أرى يا أمير المؤمنين دنيا يأكل بعضها بعضا، أنت المسئول عنها، والمأخوذ بما فيها .

سـكت ولم يكن في بالي رد، وحينها طار غراب من حجرتي ينعب وفي منقاره كسـرة، فأردت كسر الصمت وقلت :

- ما ترى هذا الغراب يقول يا (عمر)؟

قال :

- أظنه يقول من أين دخلت هذه الكسرة، وكيف خرجت ؟ !

قلت :

- إنك لتجيء بالعجب يا (عمر) .

نظر لي لبرهة ثم قال :

- إن شئت أخبرك بأعجب من هذا .

قلت :

- فأخبرني .

قال :

- من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشـيطان فأطاعه، ومن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها، ثم اطمأن إليها .

قلت :

- نغصت علينا ما نحن فيه يا عمر .

ثم سكت قليلا وكأنه يستعيد ذكرى هذا اليوم في خياله ان هذا الرجل لا يشـغله عن تقواه شيء ثم وكأنه اتخذ قراره أكمل قائلاً لمستشاره :

- ولكن لئن ولّيته ولم أولِّ أحـداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونـه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعـل أحدهم بعده، ماذا تقول أن

جعلت (يزيد بن عبد الملك) بعده، فإن ذلك مما يسكنه ويرضون به .

هز (سهيل) رأسه استحساناً:

- خير الرأي ما قلت يا أمير المؤمنين .

فتناول سليمان المحبرة وبريشتها كتب بيده:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز، إني وليتـــه الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا فيُطمع فيكم».

وختم الكتاب، ثم أرسل إلى (كعب بن حامد) صاحب الشرطة أن « مُرْ أهل بيتي وحاشيتي فليجتمعوا»

فأرســـل إليهم كعب فجمعهم، ثم قال (ســـليمان) ل(ســـهيل) بعد اجتماعهم :

- اذهـــب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أنه كتابي ومُرهم فليبايعوا من وليت .

ففعل (سهيل) ،ولم يكشف لهم عمن ولى خليفته فلما قال لهم ذلك قالوا :

- سمعنا وأطعنا لمن فيه .

وقالوا :

- ألا ندخل فنسلم على أمير المؤمنين.

قال :

- بلى .

فدخلوا فأشار(سليمان) للكتاب في يد وزيره وقال لهم :

- هذا الكتاب عهدي، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب .

فبايعوا وهم لم يقرأوا الكتاب بعد ولم يعلموا ما الاســـم الذى كتب فيه فلما مات (سليمان) أرسل إليهم (سهيل) وكان معهم (عمر بن عبد العزيز) :

- قوموا إلى صاحبكم فقد مات .

قالوا جميعاً في حزن :

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم هتف أحدهم :

- اقرأ علينا كتاب أمير المؤمنين يا (سهيل) .

فقـــرأ عليهم الكتاب، فلما انتهي إلى ذكر (عمر بن عبد العزيز) نادى أحدهم وقد هب واقفاً بينما سرت الهمهمات بين الجمع ما بين معترض ومستحسن :

- والله لا نبايعنه أبداً .

قال (سهيل) في غضب :

- لأضربن والله عنقك، قم فبايع.

فصمت الجميع وتقدم يجر رجليه نحو (عمر) الجالس تتنازعه افكاره ولا يهتم بما يدور حوله وهو يقول :

- إنا لله وإنا إليه راجعون .

فقال (عمر) :

- نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي لكراهتي له .

ولما صعد (عمر) المنبر، قال في أول لقاء له مع الأمة بعد استخلافه:

- أيها الناس، إني قد ابتُليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة :

- قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضينا بك، فولِّ أمرنا باليمن والبركة

فقال (عمر) :

- «أما بعـــد، فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاض ولكني منفّذ، ألا وإني لست بمبتدع ولكني متبع، ألا إنه ليس لأحد أن يُطاع في معصية الله، ألا إني لســـت بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً.

أيها الناس، من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه، ولا يغتابن عندنا الرعية، ولا يعترض فيما لا يعنيه.

أوصيكـــم بتقوى الله، فإن تقوى الله خلف من كل شـــيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبـــارك وتعالى أمر دنيـــاه، وأصلحوا ســـرائركم، يصلح الله الكريم علانيتكم، وأكثروا من ذكر الموت، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم، فإنه هادم اللذات...

وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل، ولا في نبيه، ولا في كتابها، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهـــم، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً.»

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال:

- يا أيها الناس، من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم. وإن مـــن حولكم من الأمصار والمدن، فإن هـــم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ .

ثم نزل وعـــاد إلى بيته وقد اثقله حمل اكتافـــه فدخل على زوجته (فاطمـــة بنت عبد الملك) فقال لها لما اخـــذت تهنيه بالخلافة :

- يا (فاطمة) لقد وليت عليكم وأنا كاره فلا تحبى ما كرهت .

ثم أشار إلى صندوق تضع فيه جوهرة قد أهداها لها أبيها يوم عرسها وقال :

- يا (فاطمة) اختاري، إما أن تردي حليك إلى بيت المال، وإما تأذني لي في فراقك، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد .

قالت :

- بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه، وعلى أضعافه لو كان لي .

وكانت أذا جلســـت في مجلس النساء وسألوها عن حال (عمر) معها بعد الخلافة قالت :

- ما أعلم أنه اغتســـل لا من جنابة ولا من احتلام منذ استخلفه الله علينا ولا أعلم أن حاله هذا ســـيتغير حتى ينتقل إلى رحاب ربه .

وكانوا أذا استنكروا عليها فقر حالها وهى زوجة أمير المؤمنين تقول :

- دعوا أمير المؤمنين وشـــأنه فلقد كان اليوم يسألني يا فاطمة عندك درهم أشتري به عنبا ؟ قلت :

- لا

فقال :

- فعندك شيئاً أبيعه وأشتري بثمنه عنبا ؟

قلت :

- لا، أنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشتري بها عنبا ؟ !

قال :

- هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غدا في نار جهنم .

ولما كان ذات صباح اشتد على (عمر) المرض فأرسلت إلى أخوها (مسلمة) تخبره بحال زوجها حتى يخبر الناس فلما علم (مسلمة) دخل على (عمر) يعوده في مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقال (لفاطمة) :

- يا فاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين .

قالت :

- نفعل إن شاء الله .

ثم جاءه في المساء ليطمئن عليه فإذا القميص على حاله، فقال :

- يا فاطمة، ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؛ فإن الناس يعودونه ؟

قالت وهى تمنع نفسها من البكاء :

- والله ما له قميص غيره .

ذات مساء يجلس بين أبناء عمومته فاشتهى التفاح فقال :

- لو أن عندنا شيئا من تفاح فإنه طيب ؟

ولمـــا انفض الجمع وعاد كل الي داره فقام رجل من أهله فأهدى إليه تفاحا، فلما جاء به الرسول رده إليه وقال :

- ما أطيبه وأطيب ريحه وأحسنه، ارفع يا غلام واقرأ على فلان السلام، وقل له : إن هديتك قد وقعت عندنا بحيث تحب .

فقال (عمرو بن مهاجر) وقد كان جالساً معه :

- يا أمير المؤمنين، ابن عمك رجل من أهل بيتك، وقد بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة .

فقال (عمر) ضاحكا :

- صدقت يا (عمرو) ولكن إن الهدية كانت للنبي صلى الله عليه وسلم هدية، وهي لنا رشوة .

ولما مـــات صديقه فجاء إلى أهله يعزيهـــم فوجدهم جزعين ينوحون ويبكـــون ولما وجدوه صرخوا في وجهـــه، فقال لهم (عمر) :

- إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت، وإن صاحبكم هذا لم يســـد شيئا من حفركم، إنما سد حفرة نفسه، وإن لـــكل امرئ منكم حفرة لا بد والله أن يســـدها، إن الله تعالى لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب، وعلى أهلها بالفناء، ولا امتلأت دار حبرة إلا امتـــلأت عبرة، ولا اجتمعوا إلا تفرقـــوا، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها، فمن كان منكم باكيا فليبكِ على نفســـه، فـــإن الذي صار إليه صاحبكم اليوم كلكم يصير إليه غدا .

ثم أنشد قائلا :

تسر بما يفنى وتشغل بالصبا ... كـما غـر باللـذات في النـوم حـالم

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلـك نـوم والـردى لـك لازم

وتعمل فيها سوف تكره غية كذلـك في الدنيـا تعيـش البهائـم

فلمـا دفن الميت، ركب (عمر) بغلة صغيرة له، وغاب بين القبور، حتى حل الليل وسـاد الظلام فظن الناس أن قد أصابه مكروه فحمل بعضهم المشاعل وعادوا باحثين عنه فوجدوه جالسا بين القبور ولما انتهكت اضواء مشاعلهم ظلمة الليل فرآهم سألهم عن سبب عودتهم فقالوا :

– تأخرت علينا يا أمير المؤمنين فعدنا لنرى ما أخرك .

أحنى أميرهم رأسـه وقام إلى بغلته ليغادر معهم وكلما مر علي قبر تمتم بالسلام حتي خرجوا إلى ديار الأحياء، ولما بلغ داره مع القليل منهم سـألوه عما جعله يظل طوال هذا الوقت يجالس القبور .

فقال (عمر) راوياً ما جرى:

– سرت بين القبور، ثم جئت إلى قبر، فركزت عليه المقرعة وقلت :

– السلام عليك يا صاحب القبر.

فنادى مناد من تحتي :

– وعليك السلام يا (عمر)، عمن تسأل ؟

فقلت :

– عن ساكنك وجارك ،

قال :

– أما البدن فعندي، والروح عرج به إلى الله عز وجل، ما أدري أي شـيء حاله .

قلت :

– أسألك عن ساكنك وجارك ؟

الأولياء

قال :

- دمغت المقلتين، وأكلت الحدقتين، ومزقت الأكفان، وأكلت الأبدان .

فجلست افكر بما سمعت واتأمل في حالي واحوال من اجالسهم، حتى جئتم .

صمت (عمر) قليلا ثم نظر اليهم وقد عقدت ألسنتهم بكلامه فبكى وقال :

- ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وشبابها يهرم، وحيها يموت، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها، والمغرور من اغتر بها، أين سكانها الذين بنوا مدائنها، وشققوا أنهارها، وغرسوا أشجارها، وأقاموا فيها أياما يسيرة، غرتهم بصحتهم، وغروا بنشاطهم، فركبوا المعاصي، إنهم كانوا والله في الدنيا مغبوطين بالأموال على كثرة المنع عليه، محسودين على جمعه، ما صنع التراب بأبدانهم، والرمل بأجسادهم، والديدان بعظامهم وأوصالهم ؟ كانوا في الدنيا على أسرة ممهدة، وفرش منضدة، بين خدم يخدمون، وأهل يكرمون، وجيران يعضدون، فإذا مررت فنادهم إن كنت مناديا، وادعهم إن كنت لا بد داعيا، ومر بعسكرهم، وانظر إلى تقارب منازلهم التي كان بها عيشهم، وسل غنيهم ما بقي من غناه، وسل فقيرهم ما بقي من فقره، وسلهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون، وعن الأعين التي كانت إلى اللذات بها ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة، والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان ؟ محت الألوان، وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه، ومحت المحاسن، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء، وأين حجالهم وقبابهم، وأين خدمهم وعبيدهم، وجمعهم ومكنوزهم ؟ والله ما زودوهم فراشا، ولا وضعوا هناك متكأ، ولا غرسوا لهم شجرا، ولا أنزلوهم من اللحد

قرارا، أليسوا في منازل الخلوات والفلوات ؟ أليس الليل والنهار عليهم سواء ؟ أليس هم في مدلهمة ظلماء ؟ قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة، فكم من ناعم وناعمة أصبحوا ووجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم نائية، وأوصالهم ممزقة، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دما وصديدا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم، ففرقت أعضاءهم، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرا حتى عادت العظام رميما، قد فارقوا الحدائق، فصاروا بعد السعة إلى المضايق، قد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم، فمنهم والله الموسع له في قبره، الغض الناضر فيه، المتنعم بلذته، يا ساكن القبر غدا ما الذي غرك من الدنيا ؟ هل تعلم أنك تبقى أو تبقى لك ؟ أين دارك الفيحاء، ونهرك المطرد ؟ وأين ثمرك الناضر ينعه ؟ وأين رقاق ثيابك ؟ وأين طيبك ؟ وأين بخورك ؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك ؟ أما رأيته قد نزل به الأمر فما يدفع عن نفسه وجلا ؟ وهو يرشح عرقا، ويتلمظ عطشا، يتقلب من سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء، جاء من الأمر والأجل ما لا تمتنع منه، هيهات هيهات يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله، يا مكفن الميت وحامله، يا مخليه في القبر وراجعا عنه، ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى، يا ليت شعري بأي خديك بدأ البلا، يا مجاور الهلكات، صرت في محلة الموتى، ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا ؟ وما يأتيني به من رسالة ربي .

«اقتربت النهاية» هكذا كان قلب أمير المؤمنين يحادثه، ولما كانت أخر خطبة خطبها في الناس فقد قال فيها :

— «أما بعد، فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين، وسيتركها الباقون كما تركها الماضون، ألا ترون أنكم في كل يوم وليلة تشيعون غاديا

أو رائحا إلى الله تعالى، وتضعونه في صدع الأرض ثم في بطن الصدع، غير ممهد ولا موسد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وأسكن التراب، وواجه الحساب، فقير إلى ما قدم أمامه، غني عما ترك بعده. أما والله إني لأقول لكم هذا، وما أعرف من أحد من الناس مثل ما أعرف من نفسي».

ثم غطي عينه بطرف ثوبه، وبكى، ثم نزل، وعاد إلى منزله فنام في سريره

ورأت (فاطمة) في عينيه الموت فبكت وأرسلت لأخيها (مسلمة) فلما دخل عليه عرف من حاله أنها النهاية فقال :

- يا أمير المؤمنين إنك أقفرت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائي من أهل بيتك .

فقام (عمر) ونادى زوجته وأخيها :

- أسندوني

ثم قال :

- أما قولك أني أقفرت أفواه ولدي من هذا المال فإني والله ما منعتهم حقا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك لو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائي من أهل بيتك، فوصيي ووليي فيهم الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، بني أحد رجلين : إما رجل يتقي فسيجعل الله له مخرجا، وإما رجل مكب على المعاصي فإني لم أكن لأقويه على معصية الله

ثم بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرا فلما حضروا فنظر إليهم فذرفت عيناه فبكى، ثم قال : بنفسي الفتية الذين تركتهم على لا شيء لهم، بلى بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بني إنكم لن تلقوا أحدا من

العرب ولا من المعاهدين إلا كان لكم عليهم حق، أي بني إن أمامكم ميل بين أمرين، بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار، وأن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، قوموا عصمكم الله « .

ثم نظر إلى السماء وقال :

- رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا ... نعم ... قبلت ... إني آت ... أشهد أن لا أله إلا الله وأن محمد رسول الله .

فى ذلك الوقت كان رجل يرعى الشاه فى الصحراء فكانت الشاه والذئب ترعى في مكان واحد، فبينما هو جالس ينظر إليهم إذ عرض الذئب لشاة، فقام من مقامه وصرخ في ولده وزوجته قائلا :

- ما نرى الرجل الصالح إلا قد هلك .

وبكى حتى أغرق الدمع رداءه

مات أمير المؤمنين ... مات خامس الخلفاء الراشدين .... مات (عمر بن عبد العزيز) .

وتلك كرامة أخرى .....

***

الحكاية الحادية عشر

(الحلاج)

بغداد ...

كان الجـــو عاصفاً ومليئاً بالأتربة ... الـــكل يختبئ داخل البيوت والخيام ، غلقت الحوانيت ، وقفرت الطرق من المارة إلا من رجل يمشـــى وحيـــداً متكئاً على عصاه لا يحميه ســـوى لثام يَقيـــه عصف الريح وما تحمله من أتربة لا يعبأ بزمجرتها ولا يهتم بالاختباء من بطشـــها ولكنه يسير ينشد للشوارع الخالية :

لأنوارِ نور النور في الخلق أنوار
وللسر في سر المسرين أسرار
وللكون في الأكوان كون مكونٍ
يكن له قلبي ويهدى ويختار
تأمل بعين العقل ما أنا واصفٌ
فللعقل أسماع وعاةٌ وأبصار

- من ذا الذى قد جن في عقله فيمشـــى ينشـــد الأشعار في مثل ذلك الجو العاصف ؟

قالهـــا رجل يختبئ في خيمته من العاصفة العاتية لصاحبه متعجباً ، فتبسم صاحبه وقال :

- هذا الرجل قد اختلف فيه الناس اختلافهم في المسيح عليه السلام.

نظر له السائل متعجباً متسائلاً عمن يكون ..

فتابع صاحبه

أنه (الحسين بن منصور) او كما يدعوه الناس (الحلاج) قد عاد من سفرته الكبرى.

نظر الرجل متأملاً إلى الحلاج ثم سأل صاحبه :

- ولم يدعونه بهذا اللقب ؟

- لأنه يكاشف الناس بما في قلوبهم فسموه حلاج الأسرار .

اقترب الحلاج من خيمتهم ومازال يســـير مخاطباً العاصفة من حوله لا يلتفت لأي شـــيء فأستطاع الجالســـان سماع صوته فأنصتا لنشيده حتى ابتعد .. وعندها قال الرجل وكأنه يحادث نفســـه :

- غريب أمر ذاك الرجل

ثم التفت إلى صاحبه وقال بحزم :

- أريد أن أصحبه فهلا دللتني على بيته ؟

أومأ (أبو اســـحاق) موافقاً ولكنه قـــال بلهجة محذرة وصوت خفيض وكان صوته سيكون اعلى من زئير العاصفة فيسمعه اهل المدينة كلها :

- نعم أدلـــك ولكن عليك أن تعلم هذا الرجل في عداء تام مع الوزير

(على بن عيســـى) وزير (المقتدر بالله) وهذا رجل لا يرحم .

انتفض صاحبه مستنكرا وقال موبخاً:

- وهل ترى أن هذا يمنعني عن علمٍ يا رجل ؟

هز صديقه رأسه في هدوء وقال :

- إذا بعد أن تهدأ العاصفة نتجه إلى منزله ونرى .

فسأل (الحلواني) في لهفة :

- وإلى هذا الحين أحكِ لي ما تعرف عنه حتى تهدأ العاصفة .

اتكأ صاحبه للخلف ليجلس مرتاحاً وقال راويا كمن يقرأ من كتاب :

- نزح والد الحلاج إلى واســط بالعــراق، حيث عمل على تحفيظ ابنه القــرآن، وهو لم يتجــاوز بعد الثانية عشــرة، واجتذبت حياة التقى الفتى، وتبع في بادئ الأمر المعلم الصوفي (ســهل التستري)، وعندما بلغ العشــرين ارتحل إلى البصرة، وأخذ مبادئ التصوف عن (عمرو المكي)، وتزوج من (أم الحســين)، ابنة أحد تلاميذه، ولم يعرف الحلاج امرأة أخرى قط، وقد أنجب منهــا أربعة أولاد، وتعرف إلى (الجنَّيد) شيخ مشايخ الصوفية وألبسه هذا بنفسه (الخرقة) أي رداء الصوفية، وفي حجته الأولى أقــام في مكة عاما كاملا يصلي ويصوم، ولما رجع البصرة طفق يعظ الناس، وخلــع رداء الصوفية بعد أن اختلف مع (الجنيد) ، وبعدها ارتحل إلى خراسان وأمضى فيها خمسة أعوام يدعو الناس إلى الزهد، واستقر مع أسرته في بغداد، ثم كانت حجته الثانية مع أربعمائة من أتباعه، ثم ســفرته الكبيرة الثانية، وصولا إلى الهند وتركســتان، وها هو يعود إلى بغداد بعد حجته الثالثة والأخيرة .

تساءل جليسه في فضول:

- وما حمل الناس على أتباعه ؟

فأجاب صاحبه :

- إن التصوف عند (الحلاج) جهاد في سبيل إحقاق الحق، وليس مسلكاً فردياً بين المتصوف والخالق فقط. لقد طور الحلاج النظرة العامة إلى التصوف، فجعله جهاداً ضد الظلم والطغيان في النفس والمجتمع ونظراً لما لتلك الدعوة من تأثير على السلطة السياسية الحاكمة فقد أتبعه وتأثر به كل من يرى أنه وقع عليه ظلم . ولقد سمعته يوماً يقول :

«النقطة أصل كل خط، والخط كلّه نقط مجتمعة. فلا غنى للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف هو متحرك عن النقطة بعينها، وكلّ ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين ، وهذا دليل على تجلّي الحق من كل ما يشاهد وتراثيه عن كل ما يعاين. ومن هذا قلت: ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله فيه.»

ولقد أنكر عليه الكثير أقواله وأشعاره واتهموه بالزندقة والكفر وصار له أعداء كثر داخل بغداد ، أما أتباعه فأنهم يقدسون أقواله ويروى فيه مخلصهم .

لكزه صاحبه وهو يلملم عباءته و يقوم مسرعاً :

- قم الآن لندركه أو نلحقه في داره .

قال صديقه مشدوهاً من امر صاحبه:

- ولكن العاصفة لم تنته بعد يا رجل !!

اجابه في اصرار :

- قلت لك الآن ... وإلا سأذهب وحدى وأجد من يدلني .

ولم تفلح محاولات صاحبه في إثناءه عن عزمه فخرج في قلب العاصفة يبحث عن (الحلاج) في الطرقات يحاول أن يدركه ولما لم يستطع اخذ يبحث عن سكنه وخلوته تضرب وجهه الرمال ، لا يكاد يرى موضع قدميه

ولكنـــه كان مصراً عازماً على امـــره لا يحركه الفضول وانما يحركه شـــعور يغمر قلبه مخبراً إياه بأن هذا الرجل يحمل ســـراً لا يعلمه سواه وعلما لن يتعلمه من أحد غيره .

ظل يبحث ويسأل من يستطيع ايجاده وسط دوران الرمال عن الرجل أو بيته ولكن لم يدله أحد ، حتى مر ببيت صغير فقير منفصل عن البيوت في ذلك الشارع وسمع الصوت الذى يبحث عنه ينشد في الداخل :

عقْد النبوةِ مِصباح من النورِ
معلقُ الوحي في مِشكاة تامورِ
بالله ينْفخُ نَفْخَ الروح فيَ خَلدي
لِخاطِرِي نَفْخ إسرافيلَ في الصورِ
إذا تجّلى بِطوري أن يكّلمني رأيتُ
فيَ غَيبتي موسى على الطُورِ

فعلم أن هذا هو المنزل المنشـــود وأن من ينشـــد بالداخل هو (الحلاج) فطرق البـــاب ولكنه لم يكن موصداً فانفتح وبدا له الرجل الجالس على بساط من خيش فألقى السلام وقد خجل مما قد يظنه صاحب الدار من انـــه قد اقتحم عليه خلوته ، فلما رآه (الحلاج) قال :

— ادخل ولا عليك .

فدخل وجلس بين يديه، فقال له الحلاج :

— قد جئت تبحث عنى لتتعلم ... أليس كذلك ؟

قال الرجل وهو يومئ برأسه :

— بلى يا سيدى .

سأله الحلاج عمن يكون فقال:

- خادمك (إبراهيم الحلواني)

ثم أردف مفسراً قدومه المفاجئ :

- رأيتك في العاصفة وسألت عنك ولم أطق صبراً حتى اتيت إليك لأتعلم .

اعتدل الحلاج في جلسته ثم ابتسم وقد فطن لما يدور في خلد زائره وقال :

- يا بني إنّ بعض الناس يشهدون لي بالكفر، وبعضهم يشهد لي بالولاية ، والله إن الذين يشهدون علي بالكفر أحب إليّ وإلى الله من الذين يقرون لي بالولاية.

فقال (الحلواني) مستفسراً وقد احتار من كلام مضيفه :

- يا شيخ ولِم ذاك.

فأجابه (الحلاج) :

- لأنّ الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي ، والذين يشهدون علي بالكفر تعصباً لدينهم، ومن تعصب لدينه أحب إلى الله ممن أحسن الظن بأحدٍ .

ثم نظر إلى عينيه واردف :

- وكيف أنت يا إبراهيم حين تراني وقد صلبت وقتلت و أحرقت وذلك أسعد يوم من أيام عمري ؟! .

فغر (الحلواني) فاه ولم يجب وقد باغته السؤال واكتفى (الحلاج) بما قال ثم نظر إلى سقف الغرفة وقال :

- لا تجلس واخرج في أمان الله.

خـــرج (الحلواني) من منـــزل (الحلاج) بغير الحال الـــتي دخل إليها وعـــاد إلى صاحبه وقص عليه كل ما حـــدث فضحك صاحبه من حال (الحلوانـــي) الذي مازال مذهولاً من أمـــر (الحلاج) وقال له :

- أنا أيضا كان لقائي به مذهلاً.. فلقد خرجت في ليلة مقمرة إلى قبر (أحمد بن حنبل) رحمه الله، فرأيت من بعيد رجلاً قائماً مســـتقبلاً القبلـــة ، فدنوت منه بدون أن يعلـــم، فإذا هو (الحلاج) واضعا وجهه بين كفيه و يبكي قائلاً :

- «يا من أســـكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه، أنت المنفرد بالقدم، والمتوحد بالقيـــام على مقعد الصدق، قيامك بالعدل لا بالاعتدال، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال ، فلا شيء فوقك فيظلّك، ولا شيء تحتك فيقلّك ، ولا أمامك شـــيء فيجدك، ولا وراءَك شـــيء فيدركك ، أسألك بحرمة هذه التراب المقبولة والمراتب المسئولة، أن لا تردني إليّ بعد ما اختطفتني مني، ولا تريني نفسي بعد ما حجبتها عني، وأكثر أعدائي في بلادك، والقائمين لقتلي من عبادك.

فلمـــا فرغ أحس بي فالتفت وضحك في وجهي لما رأي نظرة الإجلال على وجهي وقال لي :

- يا (أبا الحسن)، هذا الذي أنا فيه هو أول مقام المريدين .

فقلت تعجباً وقد أذهلتني قراءته لأفكاري :

- ما تقول يا شـــيخ، إن كان هـــذا أول مقام المريدين فما مقام من هو فوق ذلك ؟

قال وقد تقلص وجهه وانحنى ممسكا بطنه ألما :

- والله لا أدرى إن كان أول مقام المريدين أم هو أول مقام الكافرين .

ثم زعق ثلاث زعقات وسقط وسال الدم من حلقه. وأشار إليّ بكفّه أن أذهب، فذهبت وتركته... فلمـــا أصبحت رأيته في جامع المنصور فأخذ بيدي ومال بي إلى زاوية وقال:

- بالله عليك لا تعلم أحداً بما رأيت مني البارحة.

قلت له لك ذلك على أن تعلمني شـــيئا وقد كنت حينها قد سمعت الناس يقولون فيه إنه زنديق فأردت أن أختبر ذلك بنفســـي .

نظر لي نظرة طويلة ثم جلس وأجلسني إلى جواره وقال :

- قل ما عندك .

قلت :

- يا شيخ أريد أن أعلم شيئاً من مذهب الباطن .

فقال وهو يحنى رأسه في تساؤل:

- باطن الباطل أو باطن الحق؟

فبقيت صامتاً متفكراً فقال هو:

- أما باطن الحق فظاهره الشـــريعة، من يحقق في ظاهر الشـــريعة ينكشف له باطنها، وباطنها المعرفة بالله ، وأما باطن الباطل فباطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشـــنع من باطنه، فلا تشتغل به.

ثم سكت قليلا وقام وقد هم بالانصراف إلا أنه عاد وقال :

يا بني أأذكر لك شيئاً من تحقيقي في ظاهر الشريعة... ما تمذهبت بمذهب أحد من الأئمة جملةً وإنما أخذت من كل مذهب أصعبه وأشده وأنا الآن على ذلك ، وما صلّيت صلاة الفرض قطُّ إلا وقد اغتســـلت أولاً

ثم توضأت لها ، وها أنا ابن سبعين سنة وفي خمسين سنة صلّيت صلوات ألفي سنة، كل صلاة قضاء لما قبلها.

قال (الحلواني) وهو يمسك بيد صاحبه ويكاد يجره جرا :

- قم بنا نعود إليه هذا رجل لا يترك .

وهنا قام معه صاحبه وعادا إلى منزل (الحلاج) واستأذناه في الدخول فلم يجب فقال (أبا إسحاق) :

- هيا نرجع ونعود له مرة أخرى .

فقال (الحلواني) وهو يفتح الباب ويدخل :

- أذهب أنت أنا لن أذهب .

فلم يجد بدا سوى أن يدخل معه فلما دخلا وجدا (الحلاج) يصلى فجلسا في زاوية البيت حتى يفرغ من صلاته ، فقرأ سورة البقرة في الركعة الأولى وفي الركعة الثانية آل عمران.

فلما سلّم سجد وتكلّم بأشياء لم يسمعا بمثلها...فلما خاض في الدعاء رفع صوته كأنه مأخوذ من نفسه ثم قال:

- «يا إله الآلهة، ويارب الأرباب، يا من لا تأخذه سِنة ولا نوم رد إليّ نفسي لئلا يفتنن بي عبادك. يا هو أنا وأنا هو، لا فرق بين أنيتي وهويتك إلاّ الحدث والقِدم. «

ثم رفع رأسه ونظر إليّ (أبا إسحاق) وضحك ، ثم قال:

- يا (أبا إسحاق) أما ترى أن ربي قدمه في حدثي حتى استهلك حدثي في قدمه، فلم يبق لي صفة إلاّ صفة القديم، ونطقي في تلك الصفة. والخلق كلّهم أحداث ينطقون عن حدث. ثم إذا نطقت عن القدم ينكرون علي ويشهدون بكفري ويسعون إلى قتلي... وهم

بذلك معذورون و بـــكل ما يفعلون بي مأجورون .

ثم عاد إلى الصلاة مرة أخرى فلما ختمها قال :

- «اللهـــم، أنـــت الواحد الذي لا يتم به عدد ناقـــص، والأحد الذي لا تدركه فطنة غائض، وأنت في السماء إله وفي الأرض إله أسألك بنور وجهك الذي أضاءت به قلوب العارفين، وأظلمت منه أرواح المتمردين، وأسألك بقدســـك الذي تخصصت به عن غيرك، وتفردت به عمن سواك، أن لا تسرحني في ميادين الحيرة، وتنجيني من غمرات التفكّر، وتوحشني عن العالم، وتؤنسني بمناجاتك، يا أرحم الراحمين.»

ثم سكت هنيهة وترنم، ورفع صوته في ذلك الترنم وقال:

- «يا من استهلك المحبون فيه، واغتر الظالمون بأياديه... لا يبلغ كنه ذاتك أوهام العباد، ولا يصل إلى غاية معرفتك أهل البلاد ، فلا فرق بيني وبينك إلاّ الالهية والربوبية.

فلما التفت إليهما ضحك وقال :

- يا أبا اسحاق خذ من كلامي ما يبلغ إليه علمك، وما أنكره علمك فاضرب بوجهي ولا تتعلّق به، فتضلّ عن الطريق.

فقال (الحلواني) وهو يجمع شتات نفسه :

- أنا أبحث عن الله يا شيخي .

فقال (الحلاج) :

- إن الله تبـــارك وتعالى ولـــه الحمد ، ذات واحد قائم بنفســـه، منفرد عن غيره بقدمه، متوحد عمن ســـواه بربوبيته ، لا يمازجه شيء، ولا يخالطه غـــير، ولا يحوهِ مكان، ولا يدركه زمان، ولا تقدره فكرة، ولا تصوره خطرة، ولا تدركه نظرة، ولا تعتريه فترة ... يا ولدي ، صن قلبك عن فكره، ولســـانك عن ذكره، واســـتعملهما بإدامة شكره ،

فـــإن الفكرة في ذاته والخطرة في صفاته والنطق في إثباته من الذنب العظيم والتكـــبر الكبير ... ولكن ألزم الـــكلّ الحدث لأن القدم له فالذي بالجســـم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بـــالإرادة اجتماعه فقواها تمســـكه ، والذي يؤّلفه وقت يفرقه وقت ، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمســـه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه ... ومن آواه محلّ أدركه أين ، ومن كان له جنس طالبه كيف... إنه تعالى يظلّه فوق، ولا يقّله فوق، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحده أمام، ولا يظهره قبل ، ولا يفيه قبل ، ولا يفيه بعـــد ، ولا يجمعه كلّ، ولا يوجده كان، ولا يفقده ليس ، وصُفه لا صفة لـــه، وفعله لا علة له....وكونه لا أمد لـــه ، تنزه عن أحوال خلقه ، ليس له من خلقـــه مزاج ، ولا في فعله علاج ، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم ... إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت هو فالهاء والـــواو خلقه ، وإن قلت أين فقد تقدم المكان وجوده، فالحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه ، ما تصـــور في الأوهام فهو بخلافه ... كيف يحلّ به ما منه بدأ، أو يعود ما هو أنشـــأه ، لا تماثله العيون، ولا تقابله الظنون... قربه كرامـــة ، وبعده خطيئة ، علوه من غـــير توكل، ومجيئه من غير تنقُّل. هـــو الأول والآخر والظاهر والباطن القريب البعيد ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ثم قام من مقامه وخرج من المنزل كأنه لم يكن يتحدث لأحد فخرج الرجلين خلفه فلما هم (أبا إسحاق) أن يتبعه قال له (الحلواني) :

- أتركه وشـــأنه الآن فالله وحده الأعلم بحالـــه ولكن أريد منك أن تدلني على جار له .

فأشار (أبا إسحاق) إلى رجل جالس على مصطبة أمام بيته بعد أن فرغ من كنس رمال العاصفة عنها وقال :

- هذا الرجل جاره منذ سنوات .

فذهبا إليه وسلما عليه وجلسا يسامراه ثم قال (الحلواني) :

- أريد منك أن تخبرني عن أخلص شيء رأيته في (الحلاج) .

فقال الرجل :

- رأيت (الحلاج) ينـــوي في أول رمضان ويفطر يوم العيد وكان يختم القرآن كل ليلة في ركعتين وكل يوم في مائتي ركعة ، وكان يلبس السواد يوم العيد ويقول :

- هذا لباس من يرد عليه عمله.

نظر (الحلواني) لصاحبه وبكى أشد البكاء ثم قال :

- هيا بنا لنلحق به .

فراحا يبحثان عنه في الطرقات حتى سمعوه عند الســـوق يهتف بعلو صوته في الناس ويقول :

- يا أيها الناس أغيثوني ، فإن الله اختطفني مني وليس يردني علي، ولا أطيق مراعاة تلك الحضرة ، وأخاف الهجران فأكون غائباً محروماً، والويل لمن يغيب بعد الحضور، ويهجر بعد الوصل.

فبكى الناس لبكائه حتى بلغ مســـجد (عتاب) فوقف على بابه وأخذ في كلام فهم الناس بعضه وأشكل عليهم بعضه، فكان مما فهمه الناس أنه قال :

- أيها الناس .. إنه يحدث الخلق تلطّفاً فيتجلّى لهم، ثم يستتر عنهم تربيـــةً لهم ، فلولا تجليه لكفروا جملةً، ولولا ســـتره لُفتنوا جميعاً، فلا يديم عليهم إحدى الحالتين... لكنني ليس يســـتتر عني لحظةً فأستريح حتى استهلكت ناسيَّتي في لاهوتيته وتلاشى جسمي في أنوار

ذاتـــه، فلا عين لي ولا أثر ولا وجه ولا خبر .

ثم أنشد قائلا :

حويتُ بكّلي كلَّ كّلك يا قُدسي
تُكاشفُنِي حّتى كأنّك في نفسي
أُقّلب قلبي في سِواك فلا أُرى
سِوى وحشتي منه وأنت به أُنسي
فها أَنا في حبس الحياة ممنَّع
عن الأُنس فاقبِضني إليك من الحبسِ

ثم وقع على وجهة مغشياً عليه فجرى عليه (الحلواني) و (أبا إسحاق) فحملوه فخرج عليهم رجل من المســـجد وناشدهم أن يأخذه معه إلى داره ويحضـــر له الطبيب ولا يتركه حتى يتعافى ، فقبلوا بذلك وذهبوا إلى دار الرجل فلما أفاق (الحلاج) قال له الرجل :

— أنا (ابن هارون) وأنت ضيفي أنت وصاحبيك فاطلب ما شئت يحضر إليك

فقال (الحلاج) :

— أريد أن أذهب إلى بيتي .

فقال (ابن هارون) في توسل :

— يا شيخ قبل أن تذهب أريد منك شيء أن لي ابن مريض مشرف على الموت فادعي له .

فقال له (الحلاج) وهو ينهض متثاقلاً :

— قد عوفي فلا تخف .

فدخـــل الابن عليهم كأنه لم يمرض قـــط فتعجب الحاضرون وقال واحد مـــن الذين يكرهون (الحلاج) :

- والله أنه فعل الشيطان فلا يفتننكم .

فهز (الحلاج) رأســـه أســـفاً فبادر (الحلواني) ومـــد إليه ذراعه ليتكئ عليها ولكنه أبى المســـاعدة واتكأ على عصاه وخرج من المنزل وخرج خلفه أصحابه و (ابن هارون) يهرول خلفه ويعتذر عن ما بدر من الرجل فالتفت له (الحلاج) وقال :

- قل لأصحابك لا داعى مـــن تكفيرهم لي فأنا أعلم جيدا أنهم على الحق وأنا على الباطل .

ثم نظر إلى القوم الذين التفوا حوله عند باب المنزل وقال :

- أيها النـــاس أسمعوا منى واحدة ، اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني.

فبكى بعض القوم فتقدم (الحلواني) من بين الناس وقال :

- يا شيخ كيف يبيحوا قتل رجلٍ يصلي ويصوم ويقرأ القرآن .

فقال (الحلاج) :

- يا أخي المعنى الذي به تحقن الدماء خارج عن الصلاة والصوم وقراءة القـــرآن ليس في الدنيا لهؤلاء الناس شـــغل أهم من قتلي فاقتلوني تؤجروا وأستريح .

قالهـــا ثم تركهم عائدا إلى بيته فتبعه (الحلواني) إلى داره حتى وقع ظل أشـــخاص تطل عليه من بعض السطوح ، فرفع (الحلاج) رأسه فوقع بصره على امرأة حسناء فالتفت إلى (الحلواني) وقال :

- سترى وبال هذا علي ولو بعد حين .

ثـــم دخل إلى بيته وأغلق بابه عليه فرجع صاحبه وجلس على مقعد خارج المنزل حتى أشرقت شمس يوم جديد .

فلما خرج الحلاج من منزله ووجد (الحلواني) على هذا الحال قال :

- ما حملك على ذلك يا رجل ؟

فقال الحلواني دون أن يقوم من جلسته :

- أنى أحب الله وأحب من يحبه .

نظر له (الحلاج) متبسما وقال :

- اتبعني .

فقام (الحلواني) ليسير جواره وقال :

- أوصنى .

أكمل الحلاج ســـيره كأنه لم يســـمعه حتى وصلا المسجد وجلسا اســـفل المنبر ثم قال مجيباً سائله :

- هي نفسك إن لم تغلبها غلبتك .

فقال (الحلواني) :

- وكيف الطريق إلى الله ؟

فقال (الحلاج) :

- خطوتين وقد وصلت أضرب الدنيا بوجه عشـــاقها وسلم الآخرة إلى أربابها .

فقال (الحلواني) :

- والمريد ؟

فقال (الحلاج) :

- هو الرامي بأول قصده إلى الله ولا يعرج حتى يصل .

ثم أكمل قائلا :

- والآن أذهب فقضاء الله واقع ليس له مانع .

فلم يكد ينتهى من جملته حتى تكالب عليه الجند وأخذوه إلى السجن، فأخذ (الحلواني) يجري خلفهم وهو يصرخ :

- أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله .

فيسمع صوت (الحلاج) يأتي من بينهم وهو يقول :

- سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

دامت محاكمة الحلاج تسع سنوات قضاها في السجن يعظ السجناء، ويحاكم من قبل ثمانين قاضيا ، حتى انتهوا إلى اتهامه بإدعاء الربوبية والقول بالحلول وتحريف بعض المبادئ الدينية .

وحكموا عليه بالصلب والتقطيع والحرق فلما حملوه ليصلب ضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ثم التفت إلى القوم فرأى (الحلواني) حاضرا بينهم فقال له :

- يا بنى هل معك سجادتك .

فقال:

- بلى يا شيخ .

قال :

- افرشها لي .

ففرشها فصلى (الحلاج) عليها ركعتين فقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقوله تعالى «لنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع» ، وقرأ في الثانية فاتحة الكتاب وقوله تعالى «كل نفس ذائقة الموت» ، فلما سلم قال :

- يا رب هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك وتقرباً إليك. فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد.

ثم سكت وناجى سراً ثم نادى على (الحلواني) وقال :

- أتذكر يوم ظل المرأة يا صاحبي ؟ ها أنت ترى الوبال الذى أخبرتك عنه ، فمن رفع رأسه كما رأيت وأشرف إلى ما لا يحل له ، أشرف على الخلق هكذا ... وأشار إلى الخشبة .

فلكمه السياف ، بقبضة قوية، أوقعته أرضاً، وهشمت وجهه، ثم جلدوه ألف جلدة، كما جاء في الحكم، فلما لم يمت، صلبوه ، وقطعوا رجله، فيده، ثم يده الثانية، ورجله، ثم دقوا عنقه، وأحرقوا جسده، كما رموا رماده في دجلة، وعلقوا رأسه على سور السجن .

قيل أنه لم يتألم، ولم يصرخ، بل توضأ بدمه، لما قطعوا أطرافه، فسألوه عما يفعل، وأجابهم :

- «ركعتان في العشق، لا يجوز وضوؤهما إلا بالدم».

وتلك كرامة أخرى .....

***

الفصل الثاني

أولياء الشيطان

الحكاية الأولى

(ابن الراوندي)

كانت المدينة خالية في هـذا الصباح الباكر إلا من بعض المصلين الذيـن فرغوا لتوهم من صلاة الفجر .. تنفـس الامام الجبائي رائحة الأرض الندية بزخات المطر يكره العودة إلي بيته أو صومعته ويترك هذا الجو النقي الهادئ فسـار ببطء يتأمل ما حوله ويذكر ربه وقلبه ينعم بالسكون من حوله حتى مر على جماعة صغيرة من الناس ملتفين حول أحدهم فألقى السلام وتابع طريقه لا يريد ما يعكر صفو سكينته فسمع رد سـلامه وبعض الهمسات التي لم يكترث لتفسيرها رغم سماعه لاسمه يتردد بينهم ... حتى علا صوت من بينهم يقول في تحد ونبرات مستفزة .

– يا (جبائي) ألا تسمع شيئا من معارضتي للقرآن وتقضي له؟

غادرته سـكينته عندما تعـرف على الصوت البغيـض .. انه ذلك البائـس الذي يصر على المسـير إلي هلاكه بخطىً حثيثة ..فأشـاح بكفـه ولم يـرد عامـدا ألا يلتفـت إليه حتـى يـرده إلى مقامه بين الجهـلاء .. فلحقه السـائل مصرا على سـؤاله قائلا في اسـتفزاز :

– هيا ... هل تخشى أن يعجبك قولي وتتراجع عن كبرياءك أمامي.

فنظـر (الجبائي) حولـه ليرى وجوه الملتفين حولهمـا ما بين هازئ وفضولي وحائـر وعاد لينظر إليه في هـدوء وثقه ثم قال:

- أنـــا أعلم بمخازي علومك وعلوم أهل دورك ولكني ســـأحكمك إلى نفســـك فهل تجد في معارضتك عذوبة وهشاشـــة وتشكلا وتلازما ونظما كنظمـــه وحلاوة كحلاوته؟

ارتبك الرجل ونظر حوله إلي الوجوه المرتقبة وعلم انه خاسراً مهما كانت إجابته فقال بنبرة تواضع مزيفة يحفظ بها ماء وجهه :

- لا واللّه.

فصرفه (الجبائي) بيده في احتقار :

- قد كفيتني فانصرف حيث شئت يا (ابن الراوندي).

وأدار وجهه لينصرف فأصر الصوت المزعج زاعقاً:

- سأنتظرك فى المناظرة .

فأجابه (الجبائي) دون أن يلتفت :

- لا تتعجل سيخذيك الله يومها .

فعلا الصوت المكابر ساخراً يتباهى أمام الملتفين حوله:

- سنرى .

قالها ثم أنصـــرف في خيلاء وتكبر يتبعه مريديـــه تاركاً (الجبائي) يشتعل من خلفه كالحطب الجاف ، لم يكن (الجبائي) ليتأثر باستفزاز ذلك البائس ولا حماقاته ولكن أكثر ما يجعل (الجبائي) يشعر بالحنق هو أن هذا الرجل لا يملك من العلم شـــيء ، فهو رجل متقلب لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال يبيع علمه البغي بالمال حتى أنه تجرأ بأن صنف لليهود كتاب يدعى (البصيرة) رداً على الإســـلام بأربعمائة درهم أخذها من يهود ســـامرا ، فلما قبض المال الحرام ونفذ منه ، قام بنقضه حتى يعطوه مائة درهم أخرى فيمسك عن النقض .

حتى انه لما كان على ملة الإســـلام لم يجاهر بعد بشططه كان يُرى وهو يلازم أهل الإلحاد فإذا عاتبه احدهم فى ذلك قال :

- إنما أريد أن أعرف مذاهبهم .

وألـــف كتاباً في التوحيد يتجمل به عند أهل الإســـلام لما خاف على نفسه ، والآن يطالب بمناظرة وكأنه صدق ما يعتمل في رأسه من جنون .

زفر (الجبائي) زفرة طويلة وكأنه يخرج ما يشتعل في صدره من حنق وهو يتمتم قائلا:

- لم يبق إلا المرتزقة ليجترئوا على الله ورســـوله ويستخفوا بهم بئس الزمان هذا الزمان والله .

قالها وهو متجه إلى دار ابنه (هاشـــم) لعله يجد عنده ما يسر به قلبه بعد هذه المقابلة التي نغصت عليـــه يومه فلما دخل بيت ابنه وجد عنده رجلين يتناقشان حتى علا صوتهما و(هاشم) يحاول الفصل بينهما وما أن رأوه حتى قال أحدهم وهو يشـــير إلى الرجل الآخر:

- ها قد أتى (أبا على) ليفتنا فيما يقول هذا الرجل .

جلس (الجبائي) جوارهم وهو يسأل :

- وما يقول الرجل ؟

قال (هاشم) :

- انه يقول قول (ابـــن الراوندي) أن القرآن به آيـــات متناقضة وآيات ملحونة .

فامتعض (الجبائي) وتأفف في سره يبدو أن هذا الجاهل قد وصل إلى الناس حتى تسرب جهله إلي عقر داره ولكنه قال بهدوء مجيبا :

الأولياء

- يا رجل هل تعلمُ أن محمدا كان من أوسط العرب وغير مطعون عليه في لغته، وأنه كان عند قومه من أعقل العرب فلم يكن مطعونا علي عقله ؟

فقال الرجل :

- اللهم نعم .

فتابع :

- فهل تعلم أن العرب كانوا أهل جدل ؟

فقال الرجل :

- اللهم نعم .

- فهل اجتهدوا في تكذيبه ؟

فكرر الرجل:

- اللهم نعم .

- فهل تعلم أنهم عابوا عليه بالمناقضة أو باللحن ؟

فأومأ الرجل :

- اللهم لا .

فقال الإمام وقد رأي الارتباك على وجه مخاطبه :

- أفتدعَ قولهم مع علمهم باللغة، وتأخذ بقول رجلٍ من الأراذل ؟

قال الرجل :

- أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

فقال (الجبائي) وهو يشيح بكفه :

- كفاني هذا، أنصرف وتفقه في الدين ولا تستمع للجاهلين .

بعد أن أنصرف الرجال من دار (هاشم) نظر إلى أبيه وقال :

- ما لي أرى في عينيك الهم والحزن يا أبى ؟

- لا عليك يا (هاشـــم) أنه هذا الجاهل أبن الجهول مر بي قبل أن أتى إليك فأفسد على يومي.

قال (هاشم) مهدئاً:

- يا أبتِ لا تعبأ بمثله أنه إلى زوال .

قال والده موبخاً وقد راعه تساهل ولده :

- كيف لا أعبأ به وهو يمشـــى بين الناس يبـــث سمومه في أرواحهم فيقلب عليهم دينهم ويشتت أمرهم هذا الطاعون لا بد أن يبتر ولقد قبلت أن أناظره .

انتفض (هاشم) جزعاً وقال معترضاً :

- تناظره !! يا أبي هو يسعى لذلك و يمارس الضغط عليك لا لشيء إلا لكي تقبل المناظرة حتى يعلم الناس أن إمام المعتزلة وفقيههم قبل مناظرته ويصبح معك على قدم المساواة .

قال الامام في اصرار :

- أعلم هذا يا (هاشـــم) أعلم هذا .. ولكن لابد من وضع حداً له ولمن على شـــاكلته فلو تركناه وقلنا كلب من كلاب الحى يعوى لزاد وتجـــبر وعندها لن يرتجع بحجر ولا ألف حجر .

فكر (هاشم) قليلا وهو يزرع الارض جيئة وذهابا ثم أردف:

- ولما لا نخرج عليه ونقتله ونستريح من سمومه وشيطانه .

استنكر الجبائي قوله :

- عندها سيقولون قتلناه لأنه كان على حق وبدل أن تخمد الفتنة تقوم فتنة أكبر ، وغير هذا أن العلماء في مدرسة (الصادق) تجتهد ونحن معها للحفاظ على حرية الرأي والبحث، والعلماء هناك اعتبرت آراء (ابن الراوندي) من قبيل المباحث الفلسفية فلم تلصق به تهمة الإلحاد والارتداد .

قال هاشم مجادلا :

- ولكن هذا الرجل أنكر وجود الله وأزلية العالم ، ويؤلف الكتب تطعن فيه في نبوة الأنبياء وأنكرها ، فلم يبق شك في كفره وإلحاده.

قال الأمام بحكمته المعهودة :

- يا ولدى إن بغداد الآن ، العاصمة الجديدة ودار الخلافة، وكانت تتهيأ لأن تصبح المركز العلمي والثقافي للعالم الإسلامي بأسره ولا يمر يوم على بغداد دون أن يصدر فيها كتاب جديد أو رسالة علمية ، إذ أن العلماء من جميع الأقطار يتوافدون عليها ويعرضون آثارهم وكتبهم على الوسط العلمي ، والناس من ناحيتهم متلهفين على قراءة كل جديد، وعلى اقتناء الكتب الجديدة التي يقوم الوارقون باستنساخها ، الناس الآن ليسوا كأمس ... اليوم الناس تسعى وراء الشاذ والمثير للجدل والنقاش .

قال (هاشم) مستسلماً:

- ومتى المناظرة وأين ؟

- بعد أسبوعين في السوق الكبير ان شاء الله .

أومأ هاشم :

- أعانك الله عليه يا أبتِ وثبت خطاك وأجرا الحق على لسانك .

***

وعلي الجانب الاخر كان كل ما يشغل بال (ابن الراوندي) هو كيفية شغل الدوائر العلمية بآرائه وشطحاته، فسعى إلى الذين لهم صلات بالأوساط العلمية في بغداد لكي يزكوه لدى كل من يعرفونه في عاصمة الخلافة، فحمل واحد من كتبه وأخذ يبحث عن وراق يقبل أن ينسخ له هذا الكتاب ، فلما اهتدى إليه، رجاه أن يستنسخ له عدداً من النسخ من هذا الكتاب.

فشرع الوراق يتصفح الكتاب، ودقق النظر في عناوين فصوله، وكانت حيرته تزداد كلما ازداد وقوفاً على محتويات الكتاب وجرأة صاحبه فقال له :

- يا أبا الحسن (ابن الراوندي) ، ألم يطالع أحد هذا الكتاب؟

فأجاب في زهو:

- بلى، هناك نسخ منه في متناول المهتمين بموضوعه في الرأي.

فقال الوراق هازئاً :

- ان ما يدهشني أنك ما زلت على قيد الحياة ناعماً بحريتك في الذهاب والإياب، على الرغم من هذا الكفر الذي تبثه في ثنايا الكتاب.

فقال ابن الرواندي في صلف :

- ما سجلته في هذا الكتاب حقائق وليس بكفر.

فعاد الوراق يقول له في اصرار وبنبرات مهاجمة :

- لقد أنكرت الأصول الثلاثة للإسلام، وهي التوحيد والنبوة والميعاد.

فقال ابن الرواندي مجادلاً بنبرات مداهنة :

- ليس الأمـــر كما تتصور، فلـــو دققت النظر لعرفـــت أنني لم أنكر التوحيـــد، وإنما رغبت في تنزيه الخالق عن الخرافات التي تنســـب إليه.

ثـــم انهي الموضوع مطالباً الوراق بأن يكلف أحد كتبته من المعروفين بجمال الخط أن ينسخ الكتاب ليقدمه إلى الخليفة العباسي.

فقال الوراق محذراً:

- أنصحك بألا تقدم على هذا الأمر لتجنب نفسك غضب السلطان وعقابه.

فقال ابن (الراوندي) في غرور :

- لكـــن الذي سمعته عن الخليفة أنه رجـــل رحب الصدر، محب للعلم والعلمـــاء، يهتم بالكتب والمؤلفـــات العلمية ويكافـــئ مؤلفيها بما ينفحهم من العطايا الجزيلة الســـخاء، وقد منيت نفسي الحصول على عطية جزيلـــة من الخليفة مكافأة لي علـــى تأليف هذا الكتاب.

فقال الوراق مستهيناً:

- إذاً فأنت تبيع العلم لتشتري به ثمناً قليلا .

فقال ابن (الراوندي) :

- ولكنه يظل علم في النهاية يا رجل .

فقال الوراق متأففاً :

- أنت كثير الجدل وســـتجد من يقطع دابرك من على الأرض كلها ورغم ذلك سوف أنسخ لك هذا الكتاب من أجل المال فقط فلا عتب على أن أطمع في طامع.

فقال ابن (الراوندي) في زهو وقد كسب جولة جديدة :

- إذا فلتنتهي منه قبل المناظرة فأنا سوف أناظر (الجبائي) في السوق الكبير وأحتاج للكتاب يومها لأوزعه على الناس بعد أن أسحقه .

فقال الوراق في دهشة :

- أنت ...!!! انت تناظر الشيخ الكبير !!

فقال ابن (الراوندي) في فخر وهو يستدير منصرفاً في خيلاء :

- وسأنتظرك يومها يا وراق فلا تتأخر على .

***

كان من المعتاد في المناظرات أن يتم تحديد الأصول في المناظرة بمعنى أن يتم تحديد المصادر التي سيرجع لها كل طرف والإرتضاء بها قبل بدء المناظرة ثم تحديد من يسأل ومن يجيب وبما أن (ابن الراوندي) لديه أصل يرجع إليه فقرر تحديد كل شيء في يد (أبا على) وارتضى باختياره .

وهكذا احتشد الناس في السوق وفي ساحة المناظرة اجتمعوا ليشهدوا رد الامام الكبير علي ابن الرواندي ، وكان على رأسهم أمير المؤمنين ، ورغم كثرة العدد إلا أن الصمت عم المكان عندما حضر الرجلين إلى منتصف الساحة كان ابن الرواندي يتحرك في خيلاء وهو يحيي مريديه الهاتفين بإسمه في زهو تلاشي وتحول إلي تواضع زائف وهو ينحني أمام الخليفة محيياً ثم ينتظر اشارته بالجلوس ليجلس علي يساره بينما دخل الامام الجبائي في هدوء وقاره وهيبته اخرست الجميع واومأ برأسه نحو الخليفة ويجلس إلي يمينه مواجهها مناظره ، فأشار أمير المؤمنين بالبدء فانطلق (ابن الراوندي) دون أن ينتظر (الجبائي) وعلا صوته قائلا :

- يا (الجبائي) ما تقول في ثلاثة أخوة ، أحدهم كان مؤمناً براً تقياً،

والثاني كان كافراً فاسقاً ، والثالث مات صبياً؟

فقال (الجبائي) بهدوء :

- أما الزاهد ففـــي الدرجات ، وأما الكافر ففي الدركات ، وأما الصبي فمن أهل السلامة .

فقال (ابن الرواندي) بلؤم باد:

- فإن أراد الصغير أن يصعد إلى درجات الزاهد، فهل يؤذن له؟

قال (الجبائي) بنفس هدوءه الواثق :

- لا لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هناك بعمله.

قال (أبن الراوندي) مجادلا:

- فـــإن قال: ما التقصير مـــني؛ فإنك ما أبقيتـــني ، ولا أقدرتني علي الطاعة؟

قال (الجبائي) :

- يقـــول الله له: كنـــت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، ولإســـتحققت العـــذاب ، فراعيت مصلحتك.

فلمعت عينا (ابن الرواندي) في خبث وألقي قنبلته :

- فلـــو قال الأخ الكافر: يارب كما علمت حاله فقد علمت حالي ، فلم راعيت مصلحته دوني؟!..

صمـــت (الجبائي) ولم يجب هو يعلم جيـــدا أن هذا القول ليس بقول (ابن الراوندي) ويعلم جيدا أنه ما قال هذا إلا للتشكيك في فكر المعتزلة من ثم التشكيك فيه هو شخصيا .

طـــال صمت (الجبائي) فســـرت الهمهمات بين الناس هل ينســـحب (الجبائـــي) من المناظـــرة حتى تكلم (الجبائـــي) وقال في حزم:

- أن الله خص من شـــاء برحمته، وخص آخـــر بعذابه، وأن أفعاله غير معللة بشيء من الأغراض .

صاح (ابن الراوندي) وهو ينظر للجمع المحتشد ثم يستقر نظره عند (أمير المؤمنين) الجالس يستمع وقال للجبائي في تشف :

- هذا ليس بقولك وإنما هو قول (الأشعري) .

فرد له الامام الصاع في حزم:

- وأنت تعلم أنها ليست مسألتك إنما مسألة (الأشعري) فلم الاعتراض اذا ؟! والأهم من ذلك لماذا لا تقول قولك الذى هو في كتبك وينم عن فكرك الجاهل .

سرت الهمهمة مرة أخرى بين الناس فأسكتها (أمير المؤمنين) قائلا :

- وما تقول في كتبك يا (ابن الراوندي) ؟

تلعثم (ابن الروانـدي) قليلا ثم استعاد رباطة جأشه وأجاب في خفوت:

- النـــاس في صناعة الكلام على طبقات يا مولاي ، فمنهم من إذا حاور وناظر أبلغ وأجاد ، وإذا كتب أو أملى أخل وتخلف .

فصاح (الجبائي) حتي يسمعه الجميع :

- كـــذاب إنما يقول هذا القول بغية الحيـــدة فيأمن من عقاب (أمير المؤمنين) أنا أقول لك يا سيدى ما يقول في كتبه ولك الحكم والأمر .

حاول (ابن الراوندي) الاعتراض بأن من حقه ان يسأل في اي مسألة تخطر بباله ولكن الخليفة أسكته والتفت الي الامام قائلاً :

- قل يا (الجبائي) .

فقال الجبائي بصوت يسمعه الجميع وهو ينظر في عيني مناظره يتحداه ان ينكر ما سيقول :

- هذا الزنديق يقول إن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم ، وقال عن قول رسول الله (لعمار) تقتلك الفئة الباغية، كل المنجمين يقولون مثل هذا.

سرت الهمهمات المستنكرة فتابع الجبائي مخاطباً الجمع المحتشد :

- وقد كذب لعنه الله فإن المنجم إن لم يسأل الرجل عن اسمه واسم أمه ويعرف طالعه لا يقدر أن يتكلم على أحواله ولا يخبره بشيء من متجدداته. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بالمغيبات من غير أن يعرف طالعاً ويسأل عن اسم أو نسب فبان الفرق.

صمت قليلا ليستوعب الجمع ما قيل بينما جلس (ابن الراوندي) يحاول التفكير بمخرج من هذه الورطة ولما لم يرد تابع الامام مشيرا نحوه :

- وقال في نقض القرآن إن فيه لحناً وقد استدركه وصنف كتاباً في قدم العالم ونفي الصانع وتصحيح مذهب الدهرية ورد على أهل التوحيد ، وقال إن المسلمين احتجوا للنبوة بكتابهم القرآن الذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وهو معجز لن يأتي أحد بمثله ولم يقدر أحد أن يعارضه. فقال «غلطتم وغلبت العصبية على قلوبكم فإن مدعياً لو ادّعى أن إقليدس لو ادّعى أن كتابه لا يأتي أحد بمثله لكان صادقاً وأن الخلق قد عجزوا عن أن يأتوا بمثله أف إقليدس كان نبياً؟ وكذلك بطلميوس في أشياء جمعها في الفلسفة لم يأت أحد بمثلها، فأي فضيلة للقرآن».

استنكر الناس القول وتعالت الكلمات الغاضبة فأشار لهم امير

المؤمنين اي استمعوا بينما تابع الجبائي رده لقول مناظره الذي انكمش في جلسته :

- وقد أبطل لعنه الله فيما قاله، فإن كتاب إقليدس وكتب بطلميوس لو حاول أحد من الفلاسفة ممن يعرف علومهم ويحلّ رموزهم وأشكالهم أن يأتي بمثلها لقدر على ذلك. والقرآن الكريم قد حاول السحرة والكهنة والخطباء والفصحاء والبلغاء على أن يأتوا بمثله فلم يقدروا ولا على آية واحدة وقد عارضوه بأشياء بان عجزهم فيها وظهر سفههم. وأما القرآن فليس هو مما هو مركوز في الأذهان فلذلك عزّ نظيره إذ ليس هو من كلام البشر.

صمت قليلا لتسري همسات الاستحسان لقوله ثم تابع :

- وقال أيضا أن الله عز وجل يزعم أنّه يعلم الغيب فيقول: وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ثم يقول : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلاّ لنعلم. وقوله: إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تعرى. قال وقد جاع وعري. وقال في قوله تعالى: «إنّا جعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه». ثم قال: «وربك الغفور ذو الرّحمة» فأعظم الخطوب ذكر الرحمة مضموماً إلى إهلاكهم. ويفتخر بالمكر والخداع في قوله: ومكرنا. قال: ومن الكذب قوله «ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» وهذا قبل تصوير آدم ، ثم أكمل في كذبه وضلاله وقال : كلما نضجت جلودهم بدّلناهم غيرها فيعذّب جلودهم ولم تعصه.

ثم نظر الي (ابن الراوندي) باحتقار قائلاً:

- وأنا أرد على هذا الجاهل جهله فأقول : الألم للحس لا للجلد، لأن الجلد إذا كان بائناً أو العضو فإن الإنسان لا يألم بعذاب البائن منه.

ثم قال الماجن في كتابه :

- وفي وصف الجنة «فيها أنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمه». وهو الحليب ولا يكاد يشـــتهيه إلا الجائع. وذكر العسل ولا يطلب صرفاً، والزنجبيل وليس من لذيذ الأشـــربة، والســـندس يفترش ولا يلبس وكذلك الإســـتبرق الغليظ من الدّيباج. ومن تخايل أنه في الجنة يلبس هذا الغليظ ويشـــرب الحليب والزنجبيل صار كعروس الأكراد والنبط.

والتفت إلى الناس مرة أخرى قائلا :

- وأنـــا أرد على المختل خلله فأقـــول : قد أعمى الله بصيرته عن قوله تعالى» فيها ما تشتهي أنفســـكم». وعن قوله تعالى: «ولحم طيرٍ مما يشـــتهون»، ومع ذلك ففيها اللّبن والعســـل وغليظ الحرير يريد به الصفيق الملتحم النســـج وهو أفخر ما يلبس . فعاد هذا المارق وقال: وأهلك ثموداً لأجل ناقة. يريد بقوله التافه أثبات أن الله ليس بعادل .

ابتلع ريقه قليـــلا ليرطب حلقه الذى جف من شـــدة انفعاله وتابع يهجو الرجل الذي شـــحب وجهه شـــحوب الموتى وقال :

- ثم أكمل في غيه وقال: «قل يا عبادي الذين أســـرفوا على أنفســـهم لا تقنطـــوا من رحمة الله» ثم قال « إن الله لا يهدي من هو مســـرفٌ كذّاب». يريد بقوله أثبـــات أن الله متناقض يقول القول ويخلفه ، وأنا أرد على فاسق فســـقه فأقول : لو علم (أبن الرواندي) لعنه الله أن الإســـراف الأول في الخطايا دون الشـــرك وأن الإسراف الثاني هو الشـــرك لما قال هذا. ثم قال يستزيد من شـــره: ووجدناه ــ أي الله ــ يفتخر بالفتنة التي ألقاها بينهم لقوله:» وكذلك فتنّا بعضهم ببعض». وقوله تعالى: «ولقد فتنّا الذين من قبلهم» ثم أوجب للذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عذاب الأبد.

هنا علا صـــوت الناس بالهتاف بالموت للمارق ولكن الإمام أســـكتهم بيديه وتابع :

- وأنـــا أرد عليه قوله فأقول : ولـــولا أن هذا الجاهل الزنديق لا يعرف كلام العـــرب ومعانيه المختلفة في الكلمة الواحدة لما قال هذا الكفر ، فإن قوله ســـبحانه وتعالى «فتنا» أي ابتلينا وقوله «فتنوا المؤمنين» أي أحرقوهم ، ثم عاد إمام الأسافل هذا وقال في قوله: «وله أسلم من في السموات والأرض». هذا خبر محال لأن الناس كلّهم لم يسلموا. وكذلك قوله: «وإن من شيءٍ إلاّ يسبّح بحمده» وقوله: «ولله يسجد ما في السَّموات وما في الأرض». وقد أبان هذا الزنديق عن جهل وسفه فإن معنى قوله أسلم أي استسلم، إذ الخلائق كلّها منقادة لأمر اللهَ مستسلمة لحكمة ذليلة تحت أوامره ونهيه والعرب تطلق الكل وتريد البعض. كقول الله تعالى: «تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها».

صمـــت ليلتقط انفاســـه وقد ملأ الغضب الحشـــد وانكمش مريدي الجاهل حـــتي ان بعضهم انقلب عليه وعلت الصيحات فأشـــار لهم امير المؤمنين بالصمـــت ليتابع (الجبائي) كبير أئمـــة المعتزلة وحكيمهم:

- ولو ذهبنـــا نورد ما تفوّه بـــه من الكفر والزندقـــة والإلحاد لطال. والاشتغال بغيره أولى والله سبحانه منزه عما يقول الكافرون والملحدون .

انتهـــى (الجبائي) من قوله فران على المكان صمت تكاد تســـمع معه دقـــات قلب (ابن الراوندي) وهى تكاد تقفز من صدره ووجهه مســـود ولا يســـتطيع الرد فنقطع عنه الكلام حتـــى قال (أمير المؤمنين):

- أرى أنه أنقطع عنـــك الكلام يا (ابن الراونـــدي) وعليه فأنا أحكم عليـــك بالكفر والزندقة .

ثم أشار إلى الحرس وأكمل قائلا :

- أحبسوا هذا الزنديق فلا يرى الشمس بعد اليوم أما أنت يا (أبا على) فأحسنت وأحسن قولك لولا بعض الهجاء فيه .

فقال (الجبائي) :

- أحســـن الله إليك يا أمير المؤمنين أما الهجـــاء فهو غيرة على ديني ومحبة لله ورسوله .

فهاج الجمع مطالبين بموت هذا الزنديق بينما تسلل مريديه واتباعه منصرفـــين خائفين متخليين عن كبيرهم الذي غـــره علمه وفصاحته فحفر بيديه قبره ولم تفلح محـــاولات ابن الرواندي في المجادلة ولا حتي محاولته استجداء العفو.

***

عاد (الجبائي) إلى منزله ومرت الأيام عليه وهو يجتهد أن يبعد ذكرى هـــذا الرجل عن رأســـه كان مبلغ همه أن تمر الأيام ســـريعة ومتعاقبة فينســـاه الناس ويبرأوا مما بث فيهم من سموم .

ما كاد ينقطع فكره حتى دخل عليه رجل وقال :

- السلام عليك (أبا على) معي لك رسالة من رجل أشهد الله علىّ أن أضعها في يدك .

تعجب الامام وتساءل :

- ومن المرسل ؟

ناوله الرجل الرسالة قائلاً:

- اقرأ الرسالة وسوف تعلم.

ثم استأذن منصرفاً:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخذ (الجبائي) الرسالة من الرجل وفتحها وقرأ بصوت مرتفع:

- «(أبـــا على) أنا الآن على فراش الموت أنتظر نهايتي بين لحظة وأخرى وأعلم جيدا ما ســـوف ألقى ولكن أردت أن أخبرك بشيء لم أخبر به أحد من قبل واســـتحلفك أيضا ألا تفعل ، لقد تبت إلى الله وندمت على ما فعلت واعترف لك بأنه إنما صرت لما صرت إليه حميّة وأنفة من جفاء أصحابي وتنحيتهم إياي من مجالسهم.....»

لم يكمـــل (الجبائي) قراءة الرســـالة ولا يعلـــم لم فعل ذلك كل ما أدركه حينها أنه طوى الرسالة ثم ألقى بها في النار وكأنه يطرد وسوسة شيطان عن قلبه .

ثم تمتم يحادث نفسه :

- انتهيت وانتهى زمنك يا (ابن الراوندي) فدعني أنشغل بغيرك فغيرك كثر .

قالها وخرج من منزله متجها إلى ســـاحة السوق فهناك رجل ينتظر المناظرة .

***

الحكاية الثانية

(عبدالله بن سبأ)

كان الجمع في ذلك المنزل يستمع باهتمام شديد للرجل الجالس في وسط الباحة يحادثهم بكلام غليظ المعاني معسول الالفاظ يقطر عسلا مسموم كلام لم يسمعوا به من قبل لكنهم يجدوا لغلظته في قلوبهم صدى فقد ران عليها الجهل والمصالح وغلبة العصبية فكانوا منصتين له ويتشربون كلامه كما تتشرب الأرض الجافة الماء ولو كان آسنا.

فقال لهم فيما يقول :

— «اني لأعجب ممن يزعم أن (عيسى) يرجع ، ويكذّب بأن محمداً يرجع, وقد قال الله عز وجل (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) فمحمد أحق بالرجوع من (عيسى) .

وإنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان (علي) وصي (محمد) ، أن (محمد) خاتم الأنبياء ، و(علي) خاتم الأوصياء. ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ، ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة .

إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، فانهضوا في هذا الأمر فحرّكوه، وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر».

كان كلامه يسرى بينهم كالنار في الهشيم ولان لكل منهم حاجة في نفسه لتصديق ما يسمع فقد كانوا يتحركون خلفه .. منصاعين له ولما يقول دون تحكيم لعقل أو سماع لرأى ... فخرجوا من عنده وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في جيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصرٍ منهم إلى مصرٍ آخر بما يصنعون ، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم ، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسرّون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصرٍ:

- إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء.

إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا :

- إنا لفي عافية مما فيه الناس .

وهكذا خرج المريضة من المفتونين من الكوفة ، ومن البصرة ، ومن الشام ، ومن مصر ، ينشرون قول (عبد الله بن سبأ) ، ويعزمون كل العزم على عزل (عثمان بن عفان) حتى إذا كلفهم الأمر قتله ، وقد تواعدوا على أن يخرجوا جميعا على أن يكون اللقاء فى المدينة ، ولكنهم كانوا يعلمون جيداً أن الناس لو علموا بأمرهم لقتلوهم ، فعادوا إليه ليخبروه بالأمر فقال :

- أخرجوا إلى (مكة) بملابس الإحرام فى موسم الحج ، وكأنكم ما ذهبتم إلا لحج بيت الله الحرام ، ومن مكة إلى (المدينة) لزيارة مسجد النبي ، وهكذا لا تثار شكوك الناس ولا الشبهات أبدا حولكم .

استحسنوا قوله وعلم كل رجل منهم أن هذا الرجل الملقب (بابن السوداء) يعلم جيدا ما يصنع ويجيده وأنه دبر وخطط لكل شيء فعزموا على طاعته وقبول رأيه في كل شيء .

وهكـــذا تحرك القوم حســـب الخطة الموضوعة ولكـــن أمير المؤمنين (عثمـــان) كان له بينهم عيون فعلـــم بمقدمهم وتأكد من مقصدهم ، وســـبب مجيئهم إلى المدينة ، فقرر أن يصارح أهل (المدينة) بما يتم تدبيره من (ابن الســـوداء) وأعوانه فارتقى إلى المنـــبر وخطب في الناس قائلا :

- «يـــا أيها الناس أن مـــن القوم رجال خرجـــوا في ملابس الإحرام لا يريدون وجه الله ولا طاعته إنما يريـــدون الفتنة وحس الناس على عـــزل أمير المؤمنين وقتله فما تـــرون أن أفعل بهم ؟

فقال الناس :

- أقتلهم يا أمير المؤمنين هذا حكمهم شـــرعاً فأن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : «إنه ستكون هنّات و هنّات فمن أراد أن يفرّق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسّيف كائنا من كان .»

فقال (عثمان) رافضاً قولهم :

- بـــل نعفو ونقبل ، ونبين لهم الحق ونبصرهم جهدنا ، ولا نقيم الحد على أحد حتى يركب حداً أو يبدى كفراً .

ونزل عن المنبر والناس في انقسام بين مؤيد لقوله ومعارض.

فلمـــا دخل رجال (عبد الله بن ســـبأ) إلى المدينة دعاهم أمير المؤمنين (عثمان) إلى مجلســـه فلما حضروا بين يديه اكرم وفادهم وجالسهم ثم قال :

- اخبروني ماذا تنقمون على ؟

فنظروا إلى بعضهم البعض لا يجدون ما يقولون فأشاروا إلى كبيرهم الذى قال متلعثما يتعثر لســـانه في صياغة ما يريد قوله علي الرغم من انه لقن ما يقول تلقيناً فأخذ يعد علي اصابعه :

- يـــا (أبا عبد الله) أنـــك أتممت الصلاة في الحـــج وقد قصرها من قبلك رسول الله وصاحباه فهذا ابتداع ، وأنت مبتدع أتيت بما لم يأت به النبي ولا أصحابه ، وأكثرت المرعى لنفسك فاستثمرت أموالك ، وجمعتها لنفسك ولأولادك . وكان القرآن كتباً ، فجعلتها كتاباً واحداً . وأنك استعملت الأحداث من القادة والأمراء ، وأعطيت بعضهم أكثر من غـــيره ، وإنك تحب أهل بيتك ، وتكثر لهم فى العطاء .

كان عثمان يســـتمع إلي قوله دون أن يقاطعه فلما فرغ مجالسه من لائحة اتهاماته قال (عثمان) :

- هل انتهيت ؟

فنظـــر الرجل لأصحابه من حوله فوجـــد انهم لا يجدون ما يزيدون عليـــه فأومأ موافقا لعثمان الذي قال في حـــزم يرد هلي ما يتهمونه به

- أما بشـــأن إتمام الصلاة فأنى قدمت بلداً أهلي فأتممت ، وكان في هذا العام أعـــراب كثر جهلاء لا يعلموا من أمر دينهم شـــيئاً بعد فخفت أن يحسبوا أن الصلاة ركعتين فأتممتها ، وقمت وخطبت في الناس وأخبرتهم أن القصر سنة رسول الله وصاحبيه ولكن بينكم حدث ضغام لا يعلمون شـــيئاً عن الدين ولا عن السنة فخفت أن يستنوا .

ثم صمت قليـــلا ينتظر ان يرد احدهم عليـــه قوله فلما لم يجد من يجادله تابع بنفس النـــبرات الحازمة الهادئة :

- وأما بشـــأن إني أكثرت المرعى ، فإني قد توليت الخلافة وأنا أكثر العرب بعيراً وشـــاه ، وليس لي اليوم إلا بعيرين اثنين لحجتي .

ثم أردف ناظرا في عيونهم :

- وأما بشـــأن القرآن ، فإن القرآن واحد ، جاء مـــن عند الله وأنا تابع لصاحـــبي (أبى بكر) و (عمر) وقـــد جمعاه من قبلي .

وتابع وهو ينظر إلي وجوههم المرتبكة:

- وأما بشـــأن أني وليت الأحداث الصغار ، والله لم استعمل إلا مرضياً، وقد ولّى من قبلي أحدث منهم ، وقيل في ذلك لرسول الله في استعماله (لأسامة) أشد مما قيل .

ولما لم يجد منهم رده فعل ســـوى الوجوم تابع بحدة وقد أوجعه ســـيل الاتهامات :

- وأما بشـــأن أنى أعطيت بعض الأمـــراء أكثر من غيرهم ، فأنا أعلم أنكـــم ترمون بقولكم هذا إلى (ابن أبى ســـرح) ، ولكى تعلموا إني لم أعطه ألا خمس ما أفاء الله عليهم من الخمس ، وقد نفل مثل ذلك (أبو بكر) و (عمـــر) ، ولما زعم الجند أنهم يكرهون ذلك رددته عليهم .

- وأما بشـــأن حبى لأهل بيتي ، فإني لم أمل معهم إلى جور في حد من حـــدود الله أو في معصية ، بل أجرى الحقـــوق عليهم كغيرهم من المسلمين .

- وأما إعطائهم فإنما أعطيهم من مالي ولا أســـتحل أموال المسلمين لنفســـي ، ولا لأحدٍ من أهلي ، فو الله لم آكل منذ أن وليت الخلافة إلا من مالي .

قالها ثم سكت وأخذت دموعه تنســـاب على وجنتيه وقد تهدج صوته وهو يتمتم قائلا :

- أنسيتم (عثمان) أنا من اشترى بئر رومة ، أنا من جهز جيش العسرة .

أخـــذ يتمتم بتلك الكلمات ودموعه لم تتوقف ، حتى أشـــفق الناس عليه فقام أحدهم ووضع يـــده على كتفه وهو يقول :

- هدئ من روعك يا (أمير المؤمنين) .

فانتفض عثمان هاتفاً فيهم بعلو صوته :

- أنا من أقرض الله قرضاً حسناً .

فقاموا الناس على أتباع (ابن سبأ) وقالوا لهم :

- بئس الخلق أنتم ومن بعثكم ، إنا والله ما نعلم أن (عثمان) فعل شيئاً بغير حق ، ولا جاء من الكبائر شيئاً ، ولكن هو هذا المال أن أعطاكموه رضيتم ، وإن أعطى إلى قرابته سخطتم ، إنما تريدون أن تكونوا كفارس والروم لا يتركون لهم أميراً إلا قتلوه .

فتراجع أصحاب (ابن سبأ) خوفاً على أنفسهم وخرجوا من مجلس (عثمان) بل وخرجوا من المدينة كلها ، حتى ظن أهل المدينة أن أمرهم قد انتهى وأنهم ذهبوا بلا رجعة .

ولكن هذا لم يرض (ابن سبأ) الذى دس لهم السم في الكلمات وخاطب نفوسهم الضعيفة وأغراضهم الدنيئة بغرض إثارة الفتنة وتفريق جمع المسلمين واستغلال القلاقل والأحداث في المدينة وتعظيمها حتى يتم مراده وقد خطط لهذا جيدا.

فقام بعمل ثلاث خطابات ، خطاب من (عثمان) وخطاب من (على) وخطاب من (عائشة) وكتب في خطاب (عثمان) رسالة لكل والٍ له أن يقتل أعوان (ابن سبأ) إذا ما رجعوا إلى بلادهم ،وكتب في خطاب (على) يستحثهم ويناشدهم للرجوع إلى المدينة حتى يتم عزل (عثمان) وتوليته حكم المسلمين ، وكتب في خطاب عائشة رسالة تهيجهم على قتل (عثمان) بأمر منها .

وأعطى الخطابات إلى رجال من أتباعه مروا بالرجال العائدة إلى بلادها بعد مناظرتهم مع (عثمان) فوقعت الخطابات في أيديهم كما خطط لذلك (ابن سبأ) ، فعادوا إلى المدينة جميعاً في وقت واحد ودخلوا على (على) فقالوا :

- ألم تر إلى عدو الله (عثمان) قد كتب فينا رسالة بخطه وعليها خاتمه يأمر فيها أميره (عبد الله بن ابي السرح) أن يقتلنا ويصلبنا إذا ما عدنا إلى ديارنا ، وقد وقع بين أيدينا رسـوله فأنجانا الله مما كان يريد .

فقال (على) باستنكار :

- والله ما تقولون إلا كذبا ، فلقد علمت أن (ابن السرح) في طريقه إلى المدينة بعد ما سمع ما حدث مع (عثمان) ، فكيف يرسل له (عثمان) وهو قادم له .

أصابتهم الدهشة من قول (على) وقالوا :

- فلم كتبت لنا ؟!

فقال (على) في حدة وقد ادرك ان الفتنة اسـتيقظت وكشـرت عن انيابهـا في وجوه الجميع :

- والله ما كتبت إليكم شـيئاً ، ثم كيـف علمتم يا أهل (الكوفة) ويا أهل (البصرة) بما لقى أهل (مصر) ، وقد سـرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا؟! هذا والله أمر دبر بالمدينة .

قالها وتركهم ، وخرج من (المدينـة) كلها ، فانطلقوا إلى (عثمان) فلما دخلوا عليه قالوا لـه مثل ما قالوا (لعلى) فقال :

- إما أن تقيموا أثنين من المسـلمين ليشـهدوا على وأنى كتبت هذه الرسـالة ، وإلا فالبينة على من ادعـى ، واليمين على من أنكر .

فقالوا بنفس العصبية :

- فسـر الكتاب كما شئت ليس لنا حاجة بك فلتعتزلنا ، ويكفينا أن أم المؤمنين (عائشة) قد أمرت بذلك .

وانصرف بعضهم بينما بقي البعض الاخر بأسلحتهم محاصرين بيت عثمان بن عفان حتي اذا ظنوا به انه سيغدر بهم قتلوه ..

ولما بلغوا بيت أم المؤمنين (عائشة) وسمعت قولهم قالت :

- أقســـم بالله الذى آمن به المؤمنـــون ، وكفر به الكافرون ، ما كتبت إليهم سوداء في بيضاء .

ورغم ذلك لم يتراجعوا وظلوا علـــى حصارهم لبيت (أمير المؤمنين) حتى أن الصحابة ضاق بهم مـــا يصنعون فقاموا إلى (عثمان) ينصرونه ويطلبون منه أن يأمرهم بحمل السلاح وقتال من يريدوا قتله وكان على رأســـهم (الحسن) و (الحسين) و (ابن عمرو) و (ابن عمر) و (ابن الزبير) و (مـــروان) و (زيد بن ثابت) فلما دخلوا على (عثمان) قال لهم :

- أقسم عليكم أن ترجعوا ، وأن تضعوا أسلحتكم ، وأن تلزموا بيوتكم .

فقال (زيد) في غضب :

- يـــا (أمير المؤمنـــين) الأنصار بالباب ، فإن شـــئت أن نكون أنصار الله مرتين فأمرنا نقاتل .

فقال (عثمان) مهدئاً:

- لا حاجة لي بذلك فكفوا ، لا أكون أول من خلف رسول الله في أمته بسفك الدماء .

فقال له (مروان) محاولاً اقناعه :

- أي ابن عم .. إن (معاوية) يطلب منك أن تأذن له أن يرســـل إليك جنـــداً ليقيم معك أن نابت المدينة أو نابك نائبة .

فكر (عثمان) قليلاً ولكنه استنكر الام. وضاق به:

- أخشى أن فعل أن أضيق الطرق والأرزاق بالجند ، على أصحاب رسول الله .

فقال له (مروان) في اصرار خوفاً عليه من نيران الفتنة المشتعلة :

- إذا فاخرج إلى الشام ، لا تبق بالمدينة .

فرفض (عثمان) رفضاً قاطعاً هذا المنفي :

- والله ما كنت أقبل جواراً على جوار رسول الله أبداً .

فقال (مروان) بعصبية :

- أذاً اخلعها ولا تقتل نفسك .

صمت عثمان قليلا يفكر في ان يقبل هذا الاقتراح وهم ان يوافق عليه فهو لا يريد ملكاً ولا ان يكون سبباً في فتنة تأكل صفوف المسلمين ولكن هنا تدخل (عبد الله بن عمر) :

- لا والله يا (أمير المؤمنين) ، إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا ؟

فقال (عثمان) وهو يشير برأسه نافيا:

- لا .

فعاد (بن عمر) يسأله:

- فإن لم تخلعها فهل يزيدون على أن يقتلوك ؟

فقال (عثمان) في اسى :

- لا .

فسأله (بن عمر) وهو ينظر في عينيه:

- فهل يملكون لك الجنة أو النار ؟

فقال (عثمان) في حدة :

- لا والله .

فنظر ابن عمر للجمع من حولهما ما بين غاضب وحائر ثم استقام واقفا وقال بقوة :

- فلا أرى أن تخلع قميصاً ألبسك به الله فتكون سنة ، كلما كره قوما خليفتهم قتلوه ، حتى لا يقوم لله دين ، ولا للمسلمين نظام .

فسرح (عثمان) قليلا وقد اعاد كلام صاحبه عليه ذكرى مع رسول الله ثم قال بحزن :

- والله يا (عبد الله) قد قالها لي رسول الله قبلك يا (عثمان) ، أنه لعل الله يقمصك قميصاً ، فأن أرادوا عليك خلعه فلا تخلعه .

قالها وسكت قليلا كأنه لا يريد مغادرة ذكرى ذلك اليوم مع رسول الله ثم أردف قائلا :

- والآن اتركوني لا حاجة لي بكم عودوا إلى بيوتكم أثابكم الله .

فانصرف الجمع بنفس حيرتهم لا يدرون كيف يأدون تلك الفتنة قبل ان تفتك بالدولة .

فلما أصبح (عثمان) كان قلبه يخبره بأن اليوم هو يوم الفصل فآثر ان يستقبله صائماً فخرج من صومعته و فتح باب داره ، وقد شد على نفسه السراويل من شدة حيائه خشية أن يقتل في هذا اليوم فتكشف عورته ، وفي باحة منزله جلس مستقبلاً القبلة بعد ان فرغ من صلاته ثم فتح كتاب الله بين يديه ، واخذ يقرأ ، وهو ينتظر انقضاض اعداؤه في أية لحظة ، فهو يعلم أن اليوم لن يمضى إلا وهو مقتول ، فلقد جاءه رسول الله في المنام وقال له :» إنك ستفطر عندنا اليوم يا (عثمان) .»

لم يخبر احداً من اهل بيته بما يعرف وها هو (عثمان) ينتظر ويرجو أن تقترب هذه اللحظة فهو يكره الانتظار ولا يطيق صبرا حتي لقاء رسول الله و بالفعل لم يفت الكثير إلا وقد انقض عليه هؤلاء المارقين كالكلاب ، فضربه أحدهم بحديده ، ثم ضرب المصحف بقدمه ، فطار المصحف إلى حجر عثمان ، فاختلطت حروفه بدماء (عثمان) الطاهرة ، الذى لم يتحرك من مكانه وظل يقرأ كما هو ، حتى ضربه ضربة أخرى فأصابت كف (عثمان) فقطعت أصابعه فقال (عثمان):

- الحمد لله ، والله أنها يد خطت وكتبت القرآن لرسول الله .

فاجتمعوا عليه وضربوه ، حتى أن زوجه كانت تحاول تدفع عنه الضرب ، فقطعوا يدها ودفعوها عنه حتى قتلوه .

فلما قضى الله من أمره ما قضى ومضى في قدره ما مضى ، قام نفر من الصحابة فغسلوه ، وكفنوه ، وحملوه على الباب ، ودفن بين المغرب والعشاء في أرض كان يملكها بجوار البقيع ، فلقد منعه هؤلاء الشرذمة الأراذل من منعه أن يدفن بجوار أصحابه من المسلمين .

وظلت (المدينة) خمسة أيام بدون إمام بعد مقتل (عثمان) الناس بين غضب وخوف فقد كان قتلة (عثمان) هم من يقودون المدينة و يؤمّون الناس في الصلاة .

وكان الناس قد أجمعوا على أن يبايعوا (على) ولكنهم كانوا أذا دخلوا عليه وجدوه يبكى ولما يراهم يقول :

- اللهم إني أبرأ إليك من دم (عثمان) ، والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلا قال له رسول الله : : ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة».

ولكن الناس ما تركوا (على) وظلوا يلحوا عليه في البيعة واخبره

العقلاء منهم انه قد يزيد الفتنة اشتعالا برفضه الخلافة واستمروا علي هذه الحال حتى تزاحموا عليه فكان يقول :

- اللهـــم إني كرهتهم وكرهوني ، فارحني منهم وأرحهم منى ، اللهم خذ منى (لعثمان) حتى ترضى.

ثم خرج إلى المســـجد وجلس في أحد أركانه وجـــاء الناس من كل مكان ليبايعونه .

وبعـــد أن صارت الأمـــور إلى (علي بن أبي طالب) اندس (ابن ســـبأ) هـــو وأتباعه بين أتباع (علي) وأظهروا الغلـــو في افضال(علي) والقول له بالرجعة، وأن عليّاً وصي رسول الله ، وأنه دابة الأرض، فوجدت تلك الآراء قبولاً عند شـــيعة (علي) ، فاتبعوهم فيها وأخذوها منهم.

وبينما كان (على بن أبى طالب) في المسجد فوجد جماعة غاضبة من الناس مقبلة عليه وبعد رده سلامهم قال احدهم في غضب وبصوت عال :

- إن هنا قوماً على باب المسجد يدَّعون أنك ربّهم.!!!

فسمع من في المســـجد كلهم وسرت الهمهمات الغاضبة وهب (علي) ليخرج اليهم دون ان يجيب سائله ثم دعاه تلك الشرذمة الذين ما أن رأوه حتي اقبلوا اليه مداهنين يريدون تقبيل يديه فانتفض بعيدا وفقال لهم :

- ويلكم ما تقولون؟

قالوا وهم منحنون في تذلل:

- أنت ربّنا وخالقنا ورازقنا.

ارتجف غضباً وقد احمر وجهه وزعق فيهم حتي يسمعه كل الناس:

- ويلكم إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشـــرب كما تشربون إن أطعتُ الله أثابني إن شـــاء وإن عصيتُه خشيتُ أن يعذّبني

فاتّقوا الله وارجعوا.

فأبـــوا فتركهم وانصرف متبرئاً منهـــم ومن قولهم فلما كان الغد غدوا عليه في بيته فجاء (الحســـين) فقال :

- والله قد رجعوا يقولون ذلك الكلام .

فاستغفر علياً الله وقد ضاق ذرعاً بهم وهو يعلم اي فتنة فيها سقطوا ويريدون جره اليها ثم قال لولده :

- أدخلهم .

فلما دخلوا عليه قال :

- والله لئن قلتم ذلك لأقتلنَّكم بأخبث قتلة .

فأبوا إلا ذلك رغم تهديده لهـــم واخبرهم بأنهم كفروا وارتدوا عن دين الله ، ثم أمر (أمير المؤمنين) بحبسهم فأن لم يرجعوا يحرقوا ويقتلوا .

وكان ما كان ، وذلك كله بتخطيط من شـــيطان فلقد وجد (ابن سبأ) أن الناس تقبل منه كل ما يقول وأن المدينة متقلبة بما يحدث فيها فادَّعـــي النبوة ، وزعم أن (علياً) هو الله فبلغ ذلك (أمير المؤمنين) فدعاه وسأله، فأقرَّ بذلك وقال:

- نعم أنت هو وقد كان أُلقي في روعي أنك أنت الله وأني نبي .

فقال له (أمير المؤمنين) وقد بلغ به الغضب مبلغاً لا يطيقه :

- ويلك قد سخر منك الشيطان فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتب .

فأبى فحبسه ، واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار .

***

الحكاية الثالثة

(عبدالله بن سلول)

– وحق الكعبة لقد ضاع ملك (بن سلول) !!

قالهـــا (عتبة) ورمـــال الصحراء تدور من حوله وتعـــود لتلتف حول الرجلـــين المتواجهين ومن يتبعهما كان يرى (عبد الله) يقف على أبواب المدينة شـــاهراً ســـيفه في وجه أبيه ملـــك (الأوس) و (الخزرج) وموحد القبائل المتحاربة على كلمته ، كيف بـــــه وهو ابن أبيه الوحيد الذى لم يحـــب أحد مثلما أحبه؟!! الذى كان يـــرى فيه امتداد لملكه وحكمه وحاملا لاسمه ؟!.

كان (عبدالله بن عبدالله بن سلول) حاملا سيفه والغضب يملأ وجهه وصوته وهو يهتف في أبيه ويقول :

– والله لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله .

كان يعلم ان ابيه يكره (محمداً) ويخشـــي علي ضياع ملكه ان تمكن محمد من نشـــر دينه بين القبائل فعاداه وكاد له .. ومن يعادي رســـول الله هو عدوه حتي يهلك دونه.

أما (عبد الله بن سلول) فقد وقف مبهوتاً يكاد يغشى عليه مما يسمع لم يضيع محمد ملكه فقط بل قلَّب عليه وحيده ووريث ملكه ، اقســـم في نفسه ان رأي (محمداً) سيقتله حتي وان كان هذا آخر ما يفعل في حياته

، كانت الصدمة تثقل انفاســـه وبالكاد استطاع تمالك رباطة جأشه ؛ فخرج صوته منكسراً لا يكاد يسمع وهو يقول :

- ولمَ يا (عبد الله) تمنع أبيك من الدخول ؟

قال (عبد الله) بحزم دون ان يتزحزح عن موقفه:

- لأنك آذيت رســـول الله ، وقلت والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وها أنا أخرجك منها وأعز رسول الله ، ولئن لم تطع لأقتلنك بسيفي هذا ، فأنا لن أصبر حتى يقتلك أحدهم يا أبى .

ابتسم (بن سلول) بسخرية مريرة وقال متهكما :

- أبـــى !! ... من الجيد أنك ما زلت تعلم أنـــني أباك يا (عبد الله) ، كنـــت أظن أن (محمد) نزع عنى أبوتك كمـــا نزع عنى ملكي .

خفـــق قلب (عبد الله) فقد كان الموقـــف عليه اكثر صعوبة ، ولكن ايمانه خرج علي لســـانه فقال لأبيه بصرامة :

- إن رسول الله لم ينزع الملك عن أحد إنما هو نبي الله وخاتم رسله أما الملك فكله لله ، إنك أنت من يحمل الضغينة والكراهية في قلبك ، أنت من أنسحب برجاله يوم غزوة (أحد) ، أنت من حرض الناس على عدم الأنفاق على المســـلمين ولا على رســـول الله حتى ينفض الناس عنه ، والله لا تبرح مكانك هذا إلا إذا أذن لك رسول الله .

وظل (عبد الله) شـــاهراً ســـيفه في وجه أبيه حتى أذن رسول الله له أن يدخل المدينة قائلاً :

- دعوه ... حتى لا يتحدث الناس أن (محمداً) يقتل أصحابه .

بعد هذا الموقف علم (عبدالله بن سلول) مدي قوة المسلمين وترابطهم وحبهم لرسول الله وأنه ان عاداه لن يجد سوي اصد والنفور وضياع ما بقي

له من ملك فاضطر أن ينتقل من العداوة الجهرية لـ(محمد) وأصحابه إلى العداوة السرية وصار يعادي الإسلام والمسلمين ويدبر المؤامرات ويحيكها هو وأعوانه كيدا للدين والإسلام وأهله ، وكان حريصاً يجاهد في أن يخفي أمره ، فيقوم بعد صلاة الجمعة يدعو قومه إلى الإسلام متظاهرا أنه ينصر الله ورسوله ، وكذا كان يتظاهر بالحرص على مصلحة المسلمين وقضية الجهاد وكان إذا حان وقت غزوة لا يخرج هو واتباعه ويتخلفون بالأعذار الواهية وإذا خرجوا ، خرجوا ليرجعوا بعدد من المسلمين ضعيفي النفوس أو ليثيروا الفتنة في صفوف جيش المسلمين .

واتخذ مسجد (الضرار) كفرا، وتفريقا، بين المؤمنين، وأرصادا لمن حارب الله ورسوله، وتستر بالمسجد، وبالإسلام وهو على الكفر الأكبر ، حتى لا تنتبه إليه عيون المسلمين ، وظل على ذلك الأمر ، والله عز وجل أعلي واعلم يخبر نبيه بما يفعل هو ومن معه ولكن يؤخرهم لعلم عنده.

حتى كانت السنة الخامسة من الهجرة يوم غزوة (بنى المصطلق) ، يومها علم رسول الله ، أن هناك من يريد أن يهاجم المدينة ، فجهز جيشاً لكي يهجموا عليهم قبل دخولهم المدينة، فخرج المنافقون معهم وعلى رأسهم (عبد الله بن سلول) لكي يشعلوا فتنة داخلية، ولكن النبي وجيشه انتصروا ، ولم تسنح الفرصة له ولا لمن معه أن يصلوا إلى مبتغاهم ، فاشتعلت نار الحقد والكراهية في قلبه ، وظل شيطانه ينهش في قلبه وعقله ، حتى رأى هودجاً يحمل امرأة عائدا بعد ليلة من عودة الجيش فسأل من معه :

- من تلك التي في الركب ؟

فأخبره احدهم :

- أنها (عائشة) زوج (محمد) .

فلمعت عيناه لعلها فرصته :

- ومن الحادي معها ؟

اجابه رجل اخر :

- (صفوان بن المعطل) .

فـــزادت الخبث عينيه إلتماعاً لقد اتـــاه انتقامه علي طبق من فضة ، فرفع عقيرته كي يســـمع الجمع من حوله وهو يقول :

- ناما سويا ؟ والله لا يخلو رجل بامرأة إلا ثالثهما الشيطان كما قال رسول الله .

ومن هذه الكلمة التي سرت كالنار في الهشيم اشتعلت المدينة بالفتنة واجـــج نيرانها من خاضـــوا من الجاهلين في عرض رســـول الله وزوجه ، وعاش المســـلمين شـــهراً كاملاً في كرب وبلاء ، حتى رسول الله أنقطع عنـــه الوحى ، فزاد القول واللغط لا يجد من يدفعه ، وانقســـمت المدينة على نفســـها قسم لا يصدق، لكنه الأغلبية الصامتة، لا يكذب، ولا يدافع ، وقســـم صنف أقليـــة، ترفض، وتكذب بين النـــاس واغلقت البيوت وبين جدرانهـــا جلس النـــاس يتبادلون الحديث أما المؤمنـــين فقد خيم علي ألســـنتهم الصمت وقلبهم مطمئن بأن الله سيظهر الحق وينصر رسوله ويخرس الأفاكين وإفكهم وكان منهم (أبو أيوب الأنصاري) وزوجه التي جلســـت جواره تحاول جره لحديث يبدد الصمـــت فتثرثر في أمور البيت والاولاد فلا يســـتجيب لكلامها ، لا يستطيع سوى الاهتمام بما يدور في باله ويقض مضجعه فيقول لها ســـاهماً بنبرات حزينة :

- أسمعت ما يقول الناس؟

فتقول في أسى :

- نعم .

فيلتفت إليها ويسألها :

- لو كنت مكان (عائشة) ، أكنت تفعلين ما يقولون عنها؟

فتنفي بقوة :

- لا والله .

فيقول بحزم :

- (فعائشة) خير منك .

فترد عليه سؤاله :

- وأنت لو كنت (صفوان) ، أكنت تفعل ما قالوه عن (صفوان) ؟

فيستنكر بقوة :

- لا، معاذ الله .

فتقول في هدوء :

- (فصفوان) خير منك.

أما المنافقين، فكانوا يقومون بترويج الشـــائعات واضافة حطبها إلي نيران الفتنة لتبقيها مشتعلة وذلك بقيادة (عبد الله بن سلول) ، وهذا ما جعل بعض المؤمنين يتكلمون في هذا الموضوع، ومنهم (مسطح بن أثاثة)، الذي ينفق عليه (أبو بكر) ، ومنهم أيضاً (حســـان بن ثابت)، شاعر النبي، الذي قال له النبي : «قل يا حسان وروح القدس يؤيدك» .

كل هذا يجري و(عائشة) طريحة الفراش لا تعلم ما يدور حولها ، ولا ما يقال عنها ، لم يخبرها احد أي شـــيء ولكنها كانت تشعر بأن هناك

خطباً ما فها هو رسول الله يدخل عليها مهموماً والتعب يثقل كاهله حتي طريقة سلامه مختلفة، وعندما تسأله عما ألم به لا يجيبها ولا يقول إلا :

- كيف حالك ؟

فتجيبه بالحمد لله .. كل يوم علي ذاك الحال واذا سـألت غيره عنه لا يجيبها بلسانه ولكن عيونه تقول مالا تفهمه .

و مضى شهر إلا ثلاثة أيام، وبدأت (عائشة) تسترد صحتها ، فخرجت مع (أم مسطح) إلى الخلاء، فبينما هن سائرات ، عثَرَت أم مسطح ، فقالت :

- تعس مسطح .

فقلت لها (عائشة) مستغربة :

- أتسبين رجلا شهد بدراً ، من أصحاب رسول الله، ومهاجر ؟

قالت المرأة بأسى :

- أوما تدرين ما قال فيكي؟

قالت (عائشة) حائرة :

- وما قال فيَ ؟

فـترددت المرأة فقد كانت تريد الاعتـذار منها عن قول ولدها فيها فأخبرتها بقول أهل الإفك وقالت لها أن كل المدينة تعرف ذلك ولكنها والمؤمنين لا يصدقون أيا من ذلك

فعادت (عائشة) تجرى إلى بيتها فدخلت علي رسول الله فوجدته يجلس مهموماً فتقدمت وهي تحني رأسها تألم لألمه يوجعها ما سمعت ويذبحها ان يفكر فيها بسوء كانت تود تبرئة نفسها أمامه وان تقسم انها بريئة ولكن رؤيته علي تلك الحال اخرسـتها عما تود قوله ولكنها قالت في خفوت :

– أتأذن لي أن أعود إلى بيت أبي أمرض .

فنظر إلي وجهها طويلاً واشفق عليها وأومأ موافقاً:

– نعم إن شئت .

فخرجت إلـــي بيت أبيها ولما رأت امها هرولت نحوها لتجلس جوارها وتمسك ذراعها تشدها إليها وتنظر في عينها تبحث عن الحقيقة وتسأل في جزع :

– أوا سمعت ما قال الناس؟

أحنت المرأة رأسها في حزن وعي تهرب من عيني ابنتها النافذتين وقالت بخفوت :

– نعم .

فجذبتها عائشة من ذراعها مره اخري في اصرار تريد رؤية عينيها :

– وما تقولين ؟

رفعت الأم رأسها وهي تحاول تهدئة روع ابنتها :

– يا بنيتي، ما من امرأة حســـناء، محبوبة عند زوجها، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .

سألتها وهي تعلم الاجابة علم اليقين :

– أوا علم رسول الله .

أومأت مرة اخري :

– نعم علم .

ناحت عائشة وقد تهدج صوتها :

- أوا علم أبي؟

فعادت لتومئ :

- نعم علم .

فتركتها وصعدت إلى سطح المنزل ، فوجدت أباها يقرأ القرآن ، فجلست إلي جواره حتي التفت إليها ونظر إلي وجهها الشاحب الذي غادرته دماء العافية وجسدها الذي نحل من المرض وعمرها الذي زادته. الصدمة اعوام فبادرته قائلة والدموع تنسكب انسكاباً :

- أوا قال الناس فيَ ؟

فقال والمرارة تملأ صوته والدموع تذرف من حروف كلماته :

- كنا آل (أبي بكر بن ابي قحافة) في الجاهلية لا يذكرنا أحد بسوء، وقد أكرمنا الله بالإسلام، فيقول فينا المنافقون ذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فتقول من بين دموعها :

- أجب عنى رسول الله .

فيقول في عزيمة هامدة ومرارة طاغية :

- والله ما أدرى ما أقول لرسول الله .

فنزلت من عنده فظلت ثلاثة أيام لا يرقي لها دم، ولا تكتحل بنوم، ولا يغمض لها جفن ، حتى ظن من حولها أن كبدها سينفطر من شدة البكاء .

أما النبي فلا يأتيه الوحى ويكاد قلبه ينفطر عليها ، فهي (عائشة) زوجه وحبها الذى يحتل قلبه ، فلا ينافسه فيه حب أحدٍ من أهل الدنيا،

حتي كان من عائشـــة ما كان فعزم أمره وقام ليدخل على زوجه (زينب بنت جحش) فيقول لها :

- أوا سمعتِ ما يقول الناس يا (زينب)؟

فتربت على كتفه في حنان وتقول نافية في قوة :

- أحمي سمعي وبصري يا رسول الله، والله ما علمت عنها إلا خيراً .

فيخرج من عندها فيجد (أم أيمن) جاريته فيقول لها في لهفة الحائر:

- أوا سمعتِ ما يقول الناس يا (أم أيمن)؟

فتقول وهي تحني رأسها في حزن لحاله :

- أحمي سمعي وبصري يا رسول الله، والله ما علمت عنها إلا خيراً .

فيخـــرج من داره يثقـــل خطواته الحزن ويتعب رأســـه عناء التفكير فيصطدم بـــ (أســـامة بن زيـــد)، فيقول له :

- ما تقول يا أسامة ؟

فيقول أسامة في قوة وثقة :

- الله أكبر يا رســـول الله، انها من أهل بيتك يا رســـول الله، ووالله ما أعلم عنهم إلا خيراً.

فيتركه ويمشـــى في طرقات المدينة بنفس الحال فتأخذه قدماه إلى بيـــت ابنته (فاطمة) وزوجها (على بـــن ابي طالب) فيدخل إليه ويقول :

- وما تقول يا علي ؟

فيقول (على) والغضب والمرارة يملآن قلبه مما يسمع :

- يا رسول الله النساء غيرها كثير، طلقها وتزوج غيرها .

فينظر إليه بجمود دون ان يجيبه ويتركه ويذهب إلى (عمر بن الخطاب) فيسأله كما سأل من قبله فقال (عمر) بحزم :

- يا رسول الله من الذي زوجك إياها ؟

فيقول رسول الله :

- الله .

فربت عمر علي ذراعه ونظر في عيناه وهو يقول ببطء :

- أيظنون أن الله يزوجك إياها ويدلس عليك ؟

فيمسك رسول الله بيده في لهفة ويقول :

- قل لهم يا عمر قل لهم .

وبعد أن خرج من عند (عمر) جمع الناس، ثم صعد على المنبر ، وقال :

- أيها الناس من يعذرَني في رجل آذاني في أهل بيتي، وما علمت على أهل بيتي إلا خيراً، ولقد ذكروا لي رجل ما علمت عنه إلا خيراً ، وما دخل على أهل بيتي في غيابي أبداً .

فيقوم (أسيد بن حضير) سيد (الأوس) ، وهو من الأنصار الصادقين ، فيقول:

- يا رسول الله إن كان من (الأوس) قطعنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من (الخزرج) مرنا فلنقطع عنقه .

فقام (سعد بن عبادة) صحابي من سادة (الخزرج) فقال :

- كذبت والله لا تقدر أن تقطع عنقه .

فقال له (أسيد) بانفعال :

- بل أنت الذي كذبت أنت منافق تدافع عن منافق .

فقام (الأوس) و (الخزرج) كل يشـــد سلاحه، يريد قتل صاحبه فراع النـــبي ما رأى وقال قبل ان ينزل من على المنبر :

- دعوها، أبدعوى الجاهلية وأنا بينكم؟ عودوا إلى بيوتكم ..عودوا

مرت ثـــلاث ليالٍ على تلك الواقعة ، وفى اليـــوم الرابع ولما علم عن أمر علمها وتدهور حالها ذهب رســـول الله إلى بيت (أبو بكر) ، فدخل على (عائشة) وعندها أبويها ، وقال لها:

- يـــا عائشـــة إن كنت بريئة فســـيبرئك الله، وإن كنـــت قد أذنبتي فاســـتغفري الله، فـــإن الله يغفر للعبـــد إذا أذنب وتاب .

فيتوقف الدمع في عين (عائشة) وتنظر إلى أبيها وأمها وتقول لهم :

- أفلا تجيبون رسول الله؟

فيحني ابيها رأسه صامتا وتقول امها بين دموعها :

- والله لا ندري بما نجيب رسول الله .

فقالت بحزم والدمع يجري علي وجنتيها مرة أخري:

- والله أرى أن أمراً استقر في نفوسكم وصدقتم، فإن قلت لكم واعترفت بشيء لم أفعله صدقتموني، وإن قلت لكم لم أفعله لم تصدقوني، والله لا أجد لي ولكم إلا قول أبا يوسف - فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

ثـــم تركتهم دون ان تعيد إليهم ناظريها وقامت إلى ســـريرها ، وهى تدعو الله وتردد :

- اللهم إني أعلم أنك ستبرئني .

فمـــا هي إلا دقائق معدودة حتى ينزل الوحى ، ويضحك رســـول الله ويقول :

- يا عائشة أبشري برَأكِ الله عز وجل .

فقال (أبو بكر) والفرحة تملأ صوته بعد حزن أيام :

- قومي لرسول الله اشكريه .

فقالت ودموع الفرحة تزيح موع الحزن ومرارته :

- لا والله لا أقوم لرسول الله، ولا أقوم إليكما، ولا أسجد إلا لله عز وجل هو الذي برأني .

ونزلت الآيات علي رســـول الله من فوق ســـبع سموات تبرئ (عائشة) ، وتخبره بأن الذين جاؤوا بالإفك ، ليسوا فرداً ولا أفراداً وإنما هم عصبة متجمعـــة من أجل هدف واحد ، يقودها (عبد الله بن ســـلول) ، فهو من كاد وخطـــط ودبر ، ثم خدع فيها من خدع من المســـلمين ، وكان فيها شديد الذكاء ، حذر المكر ، ففعل كل هذا ولم يظهر بشخصه أبدا ، ولم يقل علانية مـــا يؤخذ به فيقاد إلى الحد ، إنما كان يهمس به بين ملأه الذين يطمئن إليهم ولا يشهدوا عليه ، وعرف الخبيث كيف يختار مقتلاً ، لولا أن الله كان من ورائه محيطاً ، وكان لرسوله وآهل بيته حفيظاً .

وبعد حياة حافلة بالمؤامرات على الإســـلام ، مات (عبد الله بن أبي بن سلول) ، وذهب منافقا إلى ربه ملعون كلما ذكر أسمه .

***

الحكاية الرابعة

(الحجاج بن يوسف الثقفي)

كانت الدولة الإســـلامية في ذلك الوقت منقسمة على نفسها ففي (الحجاز) كان الناس يستعدون لمبايعة (بن الزبير) ورؤوس الدولة الأموية يعقدون مؤتمر الجابية لمبايعة (عبد الملك بن مروان) وبين ليلة وضحاها أصبح للدولة الإســـلامية خليفتين أحدهما يحكم (الحجاز) و (العراق) والأخر يحكم (الشام) و (مصر) ودارت الحروب بينهما فأرسل (عبد الملك بن مروان) جيشـــه إلى (الكوفة) ودارت بينـــه وبين (مصعب بن الزبير) ــ الذى كان يحكم الكوفة بأمر من أخيه ــ قتالا كبيرا حتى انتصر(عبد الملك بن مـــروان) في نهاية الأمر وضم (العـــراق) إلى معاقل حكمه ولم يتبقى (لإبن الزبير) إلا (الحجـــاز) والتي لم تكن خالصة له فلقد أمتنع عـــن البيعة ثلاثة من أهم الرؤوس في (الحجاز) وهم (عبد الله بن عمر) و (ابن عباس) و (محمد بن الحنفية) .

وكان لامتناع هؤلاء الكبار عن المبايعة الأثر الكبير على نفوس الناس في (الحجـــاز) فقـــد كان الكثير من الناس يقتـــدون بهم ويتخذون من مواقفهم قدوة.

ومن جهة أخرى كان هناك (الخوارج) والذين كانوا في بادئ الأمر يوالون (بن الزبير) ثم انقلبوا عليه بعد أن سمعوه يقول في (عثمان) ما يسوئهم وذكره له بالخير فنفروا منه وفارقوه واستحوذوا على كثيراً من البلدان .

أما في (الشـــام) فكان (عبد الملك بن مـــروان) يجمع الناس ويوحد الصف ويخطـــب في الناس قائلا:

- أيهـــا الناس إنكم تذكرون (عبد الله بن عمر) وصحبته من رســـول الله وقدمه في الإسلام و هو كما تذكرون لكنه رجل ضعيف و ليس صاحب أمة (محمد) بالضعيف و أما (عبد الله بن الزبير) و ما يذكر النـــاس من أمره و أن أباه حواري رســـول الله و أمه (أسماء بنت أبي بكر) ذات النطاقين فهو لعمري كما تذكرون و لكنه منافق قد خلع خليفتين (يزيد) و أباه (معاوية) و سفك الدماء و شق عصا المسلمين و ليس صاحب أمة (محمد) بالمنافق .

فمـــال الناس (لمـــروان) الذى جمـــع الجيش لمواجهـــة (الزبير) ونزع (الحجاز) من بين يديه ، ولكن الجيش كان مهدداً بالإنقسام على نفسه فكان- من وجهة نظره- بحاجة لقائد بمواصفات محددة في مخيلة (عبد الملك بن مروان) لم يجدها في أي شـــخص ممَن عرض عليه، كان يريد رجلاً يســـتطيع ضبط أمر الجند وتجميعهم تحت رايته.

فعرض (عبد الملك بن مروان) الأمر على (روح بن نزاع) قائد الشرطة فقال له (روح) :

- يا أمير المؤمنين إن في شـــرطتي رجلاً يقال له (الحجاج بن يوســـف) لو قلده أمير المؤمنين أمر عســـكره لأرحلهـــم برحيله وأنزلهم بنزوله .

فارتاح صـــدر الخليفة لما رأى من ثقة على وجـــه محدثه فقال (عبد الملك) :

- إن كان كذلك فإنا قد قلدناه القيادة للجيش حتى يثبت ما تقول.

وهكـــذا تولى (الحجاج) قيادة الجيش وفى أول يوم له كقائد مر على بعض الجند من اتباع القائد الســـابق فوجدهم قد تخلفوا عن التحرك

مع الجند فلما سألهم عن فعلتهم سخروا منه ، فأمر بجلدهم والطواف بهم في المعسكر وحرق خيامهم بما فيها من متاع وزاد .

فلما وصل خبر ذلك إلى أمير المؤمنين أرسل له وسأله لم فعل ذلك ؟

فقال (الحجاج) يداهنه :

- والله ما فعلتها إنما أنت الفاعل يا أمير المؤمنين ، أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقى من المعسكر ، وقد قامت الحرمة وتم المراد .

فأعجب (عبد الملك) بمقولته ، ثم أقره على فعلته وزاد ذلك في منزلته عنده .

وذات يوم أرسل له (عبد الملك) وأخبره أن أهل (الشام) يتباطؤون في الخروج معه للقتال في العراق فقال له (الحجاج) :

- سلطني عليهم فوالله لأخرجنهم معك .

فأذن له في ذلك فخرج (الحجاج) ، فكان لا يمر على باب رجل من أهل الشام إلا أحرق عليه داره فلما رأى الناس ذلك سارعوا إلى الخروج .

فلما رأى منه (عبد الملك بن مروان) ذلك استقر في نفسه أن هذا الرجل هو القائد المنشود فأقره قائداً على حملته المتجهة إلى (مكة) لقتال (الزبير) المحتمي بأستار الكعبة وحرمة البيت .

اتجه (الحجاج) بجيشه إلى الحجاز وقرر أن يستقر في الطائف وأن يجعل منها مركزاً لقيادته ، منتظراً تطور الأحداث ، وفى نفس الوقت يكون على مقربة من (مكة) ، بدلا من أن يهاجمها أو يحاصرها ، فهو لا يستطيع على الرغم من قوته أن يكلف الجيش بأن يهاجم البيت الحرام دون أن يكون لذلك مبرراً يدفع الجند إلى الدخول فى معركة كهذه

بنفوس مطمئنة ، فهو لم ينس قول (الهيثم بن الأســـود النخعي) لأمير المؤمنين والجيش متأهب للخروج :

- «مر هذا الغلام الثقفي أن لا يهتك أســـتار الكعبة ولا ينفر أطيارها ولكن يأخذ على (بن الزبير) بشـــعاب (مكة) وفجاجها حتى يهلك فيها جوعاً أو يخرج منها مخلوعاً» .

طالت المناوشـــات بين الفريقين وكان جيـــش (الحجاج) ينتصر في معركة تلو الأخـــرى ، فتبين له ضعف خصمه فأرســـل لأمير المؤمنين يطلـــب منه أن يأذن له في دخول الحرم للقضاء على (بن الزبير) فوافقه على ذلك .

فخـــرج الحجاج ببعض رجالـــه فأمرهم ببناء المنجنيـــق على أعالي الجبال المطلة على (مكة) فلما تبعه باقي جيشـــه ورأوا المنجنيق أصابهم الخوف والذعر وتراجعوا لأنه لم يدر بخلدهم أبدا أن الأمر ســـيصل إلى هـــذا الحد ولما رأى الحجاج ان القوة معهم لن تجدى آثر مداهنتهم وقال لهم بأســـف زائف يقصد طمأنتهم :

- والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا المارق إلى البيت ؟

ولم يقتصر الأمر على الجند فقط ، فلقد أرسل له (عبد الله بن عمر) رسالة :

- اتق الله فإنك في شـــهر حرام وبلد حرام وقـــد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليـــؤدوا فريضة الله .

فانتظر (الحجـــاج) رغما عنه وظل يشـــحن الجنـــد وكبار الناس وســـادتهم ضد عدوه حتى اذا انتهى موســـم الحج ، فنادى (الحجاج) في الناس بالانصراف إلى بلادهم ، وأمر الجند باستئناف القتال ضد الملحد (ابن الزبير) .

واستمر القتال حتى اتى صباح يوم أرعدت فيه السماء وأبرقت فتوقف الجيش عن القتال اعتقادا منهم أن هذا غضب الله عليهم ، فأخذ (الحجاج) الحجارة بيده ووضعها في المنجنيق ورمى بيده فلما رأوا ذلك فعلوا مثل ما فعل .

وفى اليوم الثاني جاءت الصواعق أشد عنفاً وقوة فقتلت من جند (الحجاج) الكثير وأحرقت المنجنيق فضعفت عزيمة الجند وكفوا عن القتال ، وتأكدوا أن هذا غضب الله عليهم ، ولكن (الحجاج) ولكنه كان ماكراً فأخذ يصرخ فيهم :

- لا تنكروا هذا فأنا ابن تهامة وهذه صواعقها ، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا ، وسيصيبهم في الغد مثل ما أصابكم .

فلما أشاروا إلى المنجنيق المحترق قال :

- ويحكم ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلكم فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم ؟ فلولا أن عملكم مقبولا ما نزلت النار فأكلته .

ولكن الجند لم يطمئن قلبهم حتى صباح اليوم التالي ، فلما رأى الحجاج الصواعق تنزل على أصحاب (بن الزبير) وتقتل منهم فقال (الحجاج) لجنده :

- أما قلت لكم أنهم يصابون ؟ وأنتم على الطاعة وهم على خلافها .

فاستمر الحصار على (مكة) وكان أثره عظيما على أهلها فلقد قطع عنهم (الحجاج) الماء والطعام ، فضربت فيهم مجاعة شديدة ، فخرج الناس من مكة إلى (الحجاج) بعدما بعث لهم بالأمان الذى أعطاه أمير المؤمنين لهم ، حتى أنه كان من بين الذين خرجوا إلى (الحجاج) يطلبون الأمان أبنا (عبد الله بن الزبير) (حمزة) و (خبيب) .

وبعـــد خروج الآلاف من (مكة) لم يتبقى مـــع (عبدالله بن الزبير) إلا قليل فاجتمع بهم يســـأل المشورة فقالوا له :

- والله لقـــد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيـــلا ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي أحدى خصلتين ، إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج .

فنظر لهم (بن الزبير) ولم ينطق فقال أخر :

- أكتب (لعبد الملك بن مروان) .

فصاح فيه (بن الزبير) مستنكراً :

- وكيف أكتب ؟ من (عبدالله) أمير المؤمنين إلى (عبد الملك بن مروان) فو الله لا يقبل هذا أبدا . أم أكتب من (عبد الله بن الزبير) إلى أمير المؤمنين ؟ فو الله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلى من ذلك .

فقال آخر :

- بل نطلب الصلح .

فنظر (بن الزبير) إليه وقال :

- أوا أي صلح هذا ؟ فو الله لو وجدوكم في جوف الكعبة لقتلوكم .

ثم تركهم وخرج إلى بيت أمه (أسماء بنت أبى بكر) فلما وجدها وقد كبرت وذهب بصرها فنام في حجرها وهو يقول :

- أماه خذلني الناس حتى ولدى وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليســـير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من ساعة فما رأيك ؟

فقالت لـــه وهى تحتضن رأســـه وتمرر يدها علـــى ملامحه وكأنها تســـتعيد صورته في مخيلتها :

- يا بنى أنت أعلم بنفسك ، أن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامضي له ، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بنى أمية ، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس من فعل الأحرار ولا أهل الدين ، وكم خلودك في الدنيا ، الموت أهون .

فقبل (بن الزبير) يدها ورأسها وقال :

- هـذا والله رأيي الذى قمت بـه داعياً إلى يومي هـذا ما ركنت إلى الدنيـا، ولا أحببت الحياة فيها وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يسـتحل حرمه ولكنى أحببت أن أعلم رأيك فزدتني بصيرة على بصيرتي ، فأنظر يا أماه بأنى مقتول من يومي هذا فلا يشتد حزنك وسـلمى الأمر لله فإن ابنك لم يتعمد منكراً ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسـلم ولا معاهد ولم يبلغني ظلم عن أعمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شـيء أأثر عندي من رضا ربى .

ثم رفع عينيه إلى السماء قائلا وقد ذرفت عيناه :

- اللهـم إني لا أقول ذلك تزكية من لنفسـي ، أنت أعلم بي ، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسـلو عنى .

فقالت (أسماء) من بين دموعها :

- إنـي لأرجو من الله أن يكـون عزائي فيك حسـنا إن تقدمتني وإن تقدمتك ، رفعت صوتها وكأنها تسـمع أهل السـماء :

- اللهـم أرحم طول ذلـك القيام في الليل الطويـل ، وفرط النحيب والظمـأ في هواجر المدينة ومكة وبره بأبيه وبي ، اللهم قد سـلمته

لأمرك فيه ،ورضيت بمـــا قضيت فآتني في (عبد الله) ثواب الصابرين والشاكرين .

ثم أقبلت تتحسس ملامحه وهى تقول :

- امـــض على بصيرتك وادنو منى حتى أودعك ولا تنســـى أن جدك (أبى بكر) وجدتك (صفية بنت عبد المطلب) وخالتك (عائشـــة) أم المؤمنين وزوج رسول الله .

فدنا منهـــا فعانقها وقبلها ثم أنصرف مـــن عندها فكان ذلك أخر عهدها به .

وكان أخـــر أيام (بن الزبير) هـــذا اليوم فلقد أقـــام الليل ثم صلى الفجر ،ثم نهض وقاتل جيش (الحجاج) حتى أضطرهم إلى الانســـحاب إلى (الحجون) ، حتى أصابته حجرة في رأســـه فسقط على الأرض فأسرع إليـــه جنود (الحجاج) فقتلوه وجاءوا بجثمانه إلى (الحجاج) ففرح فرحاً عظيما ثم أمـــر أن يصلب على جدار الكعبة .

فخرجت لـــه أمه (أسماء) ووقفت عنده فجاءها صوت (الحجاج) وهو يقول شامتاً :

- كيف رأيت نصر الله الحق وأظهره ؟

فقالت ترد عليه في قوة اكبر من قواها المتهالكة :

- ربما طغى الباطل على الحق وأهله .

فقال مهاجما بنفس النبرات المتشفية :

- إن ابنك ألحد في هذا البيـــت ، وقد قال تعالى «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليـــم» وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم .

فقالت وهى تطوح بعصاها في وجهه في غضب :

- كذبت ، كان أول مولود في الإسلام بالمدينة ، وقد فرح به رسول الله وحنكه بيده ، وكبر المسلمين يومئذ حتى أرتجت المدينة فرحاً به ، وقد فرحت أنت وأصحابك بمقتله ، فمن كان فرح يومئذ خير منك ومن أصحابك .

فارتجت أنحاء مكة بالبكاء فقام الحجاج وقد ادرك الشقاق الذى اصاب الصفوف جراء خيلاءه ورد (اسماء بنت ابى بكر عليه) وخطب في الناس :

- يا أيها الناس إن (عبد الله بن الزبير) كان من خيار هذه الأمة حتى رغب في الخلافة ونازعها أهلها وألحد في الحرم فأذاقه من عذابه الأليم ، وإن (أدم) كان أكرم على من (ابن الزبير) وكان في الجنة وهى أشرف من (مكة) فلما خالف أمر الله وأكل من الشجرة التي نهى الله عنها الله أخرجه من الجنة ، و (أدم) أكرم عند الله ، وأن (ابن الزبير) غير كتاب الله .

فقالت (أسماء) بأسى لم يهدئ من غضبها :

- كذبت والله ما رأيتك إلا أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك أخرتك، أما أن رسول الله أخبرنا أن في (ثقيف) كذاباً ومبيراً ــ أي كثير القتل ــ فأما الكذاب فرأيناه ،وأما المبير فلا أخالك إلا إياه .

فلما سمع (الحجاج) قولها بلغ به الغيظ مبلغاً فقام إلى جثمان (عبد الله) وقطع رأسه ليرسلها إلى (عبد الملك بن مروان) فلما أخبروا (أسماء) بذلك أرسلت إلى (عبد الملك) تطلب منه دفن أبنها ، فوافق على طلبها ، فلما دفنته كان لا يمر أحد بقبره إلا واشتم رائحة المسك .

***

الحكاية الخامسة

(القرامطة)

انطلق الصوت يروى ما حدث منذ عشـــرات السنين ، كان المستمعين وكأن الطير على رؤوســـهم لا ينطقون مذهولين بما يقول وتباينت ردود افعالهم بين اســـتنكار وخوف وحزن ولكن اتفق الجميع على الغضب .

- «كان للضعـــف الذي ألمّ بالخلفاء العباســـيين بعـــد موت الخليفة (الواثق) سنة ٢٣٢هـــ ، وسيطرة الأعاجم عليهم وضياع نفوذ الخلافة، الأثر الكبير في كثرة الانفصالات عن الدولة العباســـية، واستقلال بعض الأســـر المشهورة ، (كالصفاريين) و (السامانيين) و (العلويين) و (اليعفريـــين) و (الطولونيين) . ولم يبقَ للعباســـيين في كثير من الأقاليم ســـوى الدعاء لهم يوم الجمعة والعيدين، ونذر يســـير من الهدايا كما أثار (الزنج) - وهـــم طائفة من عبيد إفريقية - القلق والرعب في أوصال الخلافة العباسية، وكان مسرح ثورتهم الجامحة العنيفة التي دامت أكثر من أربع عشرة سنة المستنقعاتُ الممتدة بين (البصرة) و (واسط) وقد كلفت هذه الثورة الدولة العباسية كثيرًا من الجهود والأموال والأرواح. ومع انشغال الخليفة العباسي بالفتن الدائرة حوله ظهر (القرامطة) في ســـواد العراق والبحرين .

فخرجـــوا إلى البلاد وزعموا أنهم يرجعون إلى (محمد بن إسماعيل بن جعفر بن علي) ، ونسبوا إلى قرمط وهو (حمدان بن الأشعث) والذى استغل

الأوضاع الاجتماعية المتدهـــورة، والأحوال الاقتصادية المزرية، والنزاعات السياســـية، فبث فكرة (الإمام المهدي) المنتظر الذي ســـيحرر الناس من الظلـــم والحيف، ومن كافة الأغلال والقيود. وعـــن طريق هذه الفكرة تغلغل تأثيره الموجه إلى محيط العامة وجميع الفئات المهمشة اجتماعيًا، خاصة في الأرياف، وبعثوا في نفوســـهم الأمل بدنوّ النصر وقرب ســـاعة التحرير، وما ذلك إلا وسيلة لاستقطابهم وجذبهم إلى عقائدهم وأفكارهم التي كانت تتمحور في أنهم يتسترون بالإسلام وبقراءة القرآن وبالصلاة والصيام ، ويظهرون حب آل البيت والعفاف والزهد وترك الدنيا والإعراض عن الشهوات، ويأمرون بالصدق والأمانة والمعروف ، وفي حقيقة الأمر هم علـــى خلاف ذلك؛ إذ يبطنون الكفر والزندقة والتعطيل وبغض الأنبياء والرســـل، ويميلون إلى المجون والخلاعة والانغماس في اللذات والشهوات.

وفي كل ذلـــك قد أوثقوا أمورهم بالســـرية، وبأخذ الأيمان والعهود على من أجابهم بكتمان ما يبوحون له به من أســـرارهم، ولا يكشـــفون أمرهم إلا بالتدرج على قدر طمعهم في الشـــخص .

فكانوا يستخدمون الحيل لاستمالة الناس ويستدرجونهم إلى مذهبهم من حيث يوافق رأيه فلا يشعرون شيئًا فشيئًا ، ويخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه بعد أن يظفروا منه بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم ؛ إذ يوصون دعاتهم فيقولون للداعية:

- «إذا وجدت من تدعوه فاجعل التشـــيع دينك، وادخل عليه من جهة ظلم الأمة (لعلي)، وقتلهم (الحســـين) وســـبيهم لأهله، والتبرؤ من (تيـــم) و(عدي) و(بني أمية) و(بني العباس)، وقل بالرجعة، وأن (عليًا) يعلم الغيب. فإذا تمكنت منـــه أوقفته على مثالب (علي) وولده، ثم بيّنت له بطلان ما عليه أهل ملة (محمد) وغيره من الرسل ، وإن كان يهوديًا فادخل عليه من جهة انتظار المســـيح، وأن المسيح هو (محمد

بن إسماعيل بن جعفر)؛ وهو المهدي، واطعن في النصارى والمسلمين، وإن كان نصرانيًا فاعكس، وإن كان صابئيًا فتعظيم الكواكب، وإن كان مجوسيًا فتعظيم النار والنور، وإن وجدت فيلسوفًا فهم عمدتنا؛ لأننا نتفق وهم على إبطال النواميس والأنبياء، وعلى قدم العالم، ومن رأيته (زيديًا) أو (إماميًا) فأظهر له بغض (أبي بكر) و(عمر)، ثم أظهر له العفاف والتقشف وترك الدنيا والإعراض عن الشهوات، ومر بالصدق والأمانة، فإذا استقر عنده ذلك فاذكر له مثالب (أبي بكر) (وعمر)، وإن كان سنيًا فاعكس، وإن كان مائلاً إلى المجون والخلاعة فقرر عنده أن العبادة بَلَهٌ والورع حماقة، وإنما الفطنة في إتباع اللذة وقضاء الوطر من الدنيا الفانية «.

وكانوا يقصدون بدعوتهم الأماكن النائية والمنعزلة التي يوجد بها (الديلم) و(الأعراب) الذين قلّ بحثهم ونظرهم، ويذهبون إلى الأطراف البعيدة التي استولى على أهلها الغفلة والجهلة والطيش، ويقطعونهم عن البحث والاستدلال بالعهود والأيمان المغلظة، ويجتهدون في زلزلة عقائد الناس بإلقاء المتشابه؛ فإن سكت محدثهم سكتوا، وإن ألحّ قالوا: «عليك العهد والميثاق على كتمان هذا السر»، ثم يخبرونه ببعض الشيء ويقولون: « هذا لا يعلمه إلا آل رسول الله.» ، ويقولون: « هذا الظاهر له باطن، وفلان يعتقد ما نقوله ولكنه يستره، ويذكرون له رجلاً فاضلاً ببلد بعيد» .

وهكذا بزغ نجم القرامطة وأصبح لهم قوة وأتباع وتحركوا بجيوشهم إلى الكعبة تحت قيادة (أبو طاهر القرمطي) وكان الوقت وقت حج وبالتحديد يوم التورية ولم يمنعهم هذا من دخول الحرم وقتل كل من كان يطوف بالبيت حتى من تعلق منهم بأستار الكعبة، ونهبوا أموالهم واقتلعوا الحجر الأسود وذهبوا به، واقتلعوا أبواب الكعبة وجرَّدوها من

كســـوتها، وأخذوا جميع ما كان فيها من آثـــار الخلفاء التي زينوا بها الكعبـــة، وذهبوا بدرة اليتيم، وكانت تـــزن - فيما ذكر أهل مكة - أربعة عشر مثقالاً، وبقرطي (ماريه)، وقرن كبش (إبراهيم) ، وعصا (موسى) ، ملبسين بالذهب، مرصعين بالجوهر، وطبق ومكبة من ذهب، وسبعة عشر قنديـــلاً كانت بها من فضة، وثلاثة محاريـــب فضة، كانت دون القامة منصوبـــة في صدر البيت ودفنوا من قتلوا في بئر (زمزم) .

وكان إذا قتل منهم أحد من طواف البيت وقف على رأسه وهو يقول :

- يا حمير، أليس قلتم في هـــذا البيت من دخله كان آمنًا، وقد قتلته الساعة بحضرتكم؟

فلا يستطيع أن يرد عليه أحد .

وكان (أبو طاهر القرمطى) يمسك الرجل من أهل (مكة) فيقول له :

- ما تقول في محمد هذا صاحبكم؟

فيقول الرجل مخافة الموت :

- لا أدري .

فيقول (أبو طاهر) مقرراً :

- كان رجلاً سائسًا .

ثم يسأل مرة أخرى :

- فما تقول في أبي بكر؟

فيقول الرجل :

- لا أدري.

الأولياء

فيقول (أبو طاهر) في تهكم :

- كان رجلاً ضعيفًا مهينًا .

ثم يزيد القول ويسأل :

- فما تقول في عمر؟

فيقول الرجل :

- لا أدري

فيقول (أبو طاهر) في زهو :

- كان والله فظًّا غليظًا .

ثم يتطاول ليسأل :

- فما تقول في عثمان؟

فيقول الرجل :

- لا أدري .

فيقول (أبو طاهر) :

- كان جاهلاً أحمق.

فيزيد في غيه ويسأل :

- فما تقول في علي؟

فيقول الرجل :

- لا أدري .

فيقول (أبو طاهر) :

- كان كذاب ومختلق ، أليس يقول: إن هذا علمًا لو أصبت له حملة ، أما كان في ذلك الخلق العظيم بحضرته من يودع كل واحد منهم كلمة حتى يفرغ ما عنده، هل هذه إلا كذب واختلاق؟

فيبكى الرجل بين يديه من الضعف والقهر وهو يسمع مذمة رسول الله وأصحابه فلا يستطيع رده فيأخذه من يده إلى صحن الكعبة فيبول أمامه على أرضها وهو يشير إلى السماء ويقول :

- أين الطير الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل ؟!!

ثم يرفع سيفه فيقطع رأس الرجل الذى كان يحادثه ويمسك بها وهو واقف على باب الكعبة ويقول في خيلاء :

- أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا .

فكان الناس يفرون منه، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئًا، بل يقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيُقتلون في الطواف .

ولما رجع القرمطي إلى بلاده ومعه الحجر الأسود، وتبعه أمير مكة هو وأهل بيته وجنده، وسأله وتشفع إليه أن يرد الحجر الأسود؛ ليوضع في مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال، فلم يلتفت إليه، فقاتله أمير مكة فقتله (القرمطي) ، وقتل أكثر أهل بيته وأهل مكة وجنده، واستمر ذاهبًا إلى بلاده ومعه الحجر وأموال الحجيج وكانوا ينشدوا وهم عائدين إلى بلادهم :

فلو كان هذا البيت له ربًّا

لصب علينا النار مِن فوقنا صبًّا

لِأَنَّا حَجَجنَا حَجَّةً جَاهِلِيَّةً

مُحَللة لم تَبقَ شَرقًا ولا غَربَا

وإِنا تَرَكنَا بَينَ زَمزَمَ والصَّفَا

جَبَابِرَة لاَ تَبْغِي سِوَى رَبِّهَا رَبًّا

وظل الحجر عندهم اثنان وعشـــرون عامـــا ولم يعود إلى مكة إلا بعد مـــوت (أبو طاهر) بعد أن رماه الله تعالى في جســـده حتـــى طال عذابه، وتقطعـــتْ أوصاله وأطرافه، وهو ينظر إليهـــا، وتناثر الدود من لحمه .

في هذه السنة أعاد (القرامطة) الحجر الأسود إلى مكة ، وقالوا :

– أخذناه بأمر، وأعدناه بأمر .»

قالهـــا المحاضر ثم لملم أوراقه وقد أنهى محاضرته إلا أن أحد تلامذته قال في تعجب متسائلاً :

– ولكن كيف يا سيدى ظلت (مكة) بلا كعبة طوال هذا الوقت ؟

فقال له المحاضر وهو يعدل من وضع أوراقه ويهم بالخروج :

– لم تكن المرة الأولى ولن تكن الأخيرة يا بنى !!!

قالها وأنصرف تاركاً طلابه في حيرة ودهشـــة وقلق متســـائلين فيما بينهم هل ســـيأتي عليهم يوماً مثل تلك الأيام .

***

الحكاية السادسة

(خلق القرآن)

فرغ الناس من صلاة العشـــاء ، وعادوا إلى بيوتهم ، وإذا بأحدهم يجد شـــيخاً وقوراً يبدو علي ملامحه كبر ســـنه نائماً في الشارع بجوار بيته، فانحنـــى يهزه بيده في رفق ليوقظه قائلا :

- يا رجل ما حملك على النوم في الشارع في هذا البرد القارص ؟

فقال الرجل الناعس في ضعف مجيباً وهو يحاول الاعتدال ليجلس :

- إنني على سفر وقد أردت المبيت في المسجد ولكن خادم المسجد أبا حتى أن أنام في موضع قدمي وجرني إلى خارج المسجد حتى جدار بيتك ، فسامحني إن كان قد غلبني النوم فسأرحل الآن .

وجاهد ليقوم ويمضـــي إلى حاله ولكن الرجل أبى ان يتركه وقال له في اصرار :

- والله لن ترحل إلا في الصباح تعالى معي ستبيت عندي .

فتعفف الشيخ المسن وقال رافضاً في ادب جم :

- أكرمك الله ولكن للبيوت حرمـــات وأنا لا أريد أن أضيق على أهل بيتك .

فطمأنه الرجل وقال :

- اطمئن فلن نذهب إلى البيت ، سنذهب إلى مخبزي فأنا أعمل خبازاً، وبعد صلاة العشاء أذهب إلى هناك كي أجهز العجين للصباح .

فذهب معه الشيخ إلى المخبز فأحضر له الخباز الطعام والشراب وأحسن ضيافته واكرم وفاده ثم استأذنه أن يقوم لإعداد العجين ، فأذن له الضيف ولكنه ظل يراقبه ، فرأى أن الرجل لا يقوم بأي حركة إلا واستغفر الله قبلها وبعدها ، فسأله فضولاً :

- وهل وجدت لاستغفارك ثمره ؟

تبسم الخباز ثم قال وهو يواصل عمله :

- نعم ، والله ما دعوت الله دعوة إلا أُجيبت ،

ثم استدرك قائلاً:

- إلا دعوة واحدة .

فسأله الضيف بمزيد من الفضول :

- وما هي ؟

فقال الخباز بحزن :

- رؤية الإمام (أحمد بن حنبل) فلقد أحزنني ما ورد إلينا من أخبار عن محنته .

فضحك الضيف من قوله ولما رأي مضيفه متعجبا لضحكه كف عن الضحك وقال متبسماً :

- أنا (أحمد بن حنبل) ، والله إني قد جُررت إليك جراً .

فانتفـــض الخباز في مكانه ، ثم قـــام إلى الإمام وحضنه وقبله وهو لا يصـــدق أنه يجلس بين يدى (أحمد بن حنبل) إمام زمانه ، فلما أفاق من ذهوله قال :

– ولكن يا إمام كيف نجوت من الفتنة وما حدث فيها؟

ظل الإمام (أحمد) صامتا وكأنه يستعيد ذكرى هذه الأيام العصيبة في رأسه ثم قال :

– سأخبرك إن شاء الله سأخبرك .

قالها ثم بدأ في سرد كل ما جرى لمضيفه الكريم ...

كان الخليفة (المأمون) قد استحوذ عليه رجل يدعى (بشر بن غياث) أخذ يبث في رأس (المأمون) خليفة المؤمنين أفكاره ومذاهبه حتى أمتلك عقل الرجل ، وأخذ بقوله وأقره في بلاد المســـلمين ، فكان يدعوا الناس في المساجد والطرقات إلى القول بأن القرآن مخلوق ، وجمع العلماء وحبسهم وعذبهـــم حتى أقروا ما يقول خوفا من الموت ، فأمر بإشـــهاد أمرهم أمام النـــاس والفقهاء والعامة ، فلمـــا رأوا الناس أن أكابر علمائهم أقروا ما يدعى (المأمون) اســـتجابوا له وأقروا ما يقـــول إلا رجل خرج من الصف ووقف بين الناس يهتف ويصرخ فيهم :

– القرآن كلام الله عز وجل وليس بمخلوق .

فســـأل الخليفة عنه فقالوا له أنه يدعـــى (أحمد بن حنبل) فأمر أن يأتي به مقيداً بالأغلال والحديد ، وحمل على بعير وذهب به إلى الخليفة (المأمـــون) ، وفي طريقه مر عليه رجل من الأعراب ، والإمام أحمد راكب على البعير مقيد بالأغلال ، فقال له:

– السلام عليك يا أبا عبد الله .

فرد عليه الإمام (أحمد) السلام ، فقال هذا الرجل الأعرابي:

- يا أبا عبد الله إنك رأس المسلمين اليوم، فإياك أن تستجيب إلى ما دعوك إليه، فأنت رأس الناس وسلف الناس، وإن أجبتهم بما يريدون سيقول الناس بمثل مقالتك وتحمل أوزارهم أمام الله يوم القيامة، فإن كنت تحب الله يا أبا عبد الله ! فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ليس بينك وبين الجنة إلا أن تقتل في سبيل الله عز وجل، وإن لم تقتل مت، وإن عشت ، عشت حزيناً .

فلما وصل الإمام إلى منزل الخليفة (المأمون) خرج إليه خادم من قصر الخليفة وكان يعرف الإمام ، فلما رأى هذا الخادم الإمام مقيداً بالقيود والأغلال بكى وقال له:

- يا أبا عبد الله ! والله إنه ليعز عليّ أن أرى الخليفة (المأمون) قد سل سيفاً ما سله قبل اليوم، ويقسم الخليفة بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول:

«والله إن لم يجبني (أحمد) للقول بخلق القرآن لأقتلنه بسيفي هذا»

فجثا الإمام أحمد على ركبتيه، ورفع يديه إلى السماء، وقال لربه جل وعلا :

- سيدي غر حلمك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل، فاللهم إن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مئونته بما تشاء.

وظل الإمام (أحمد) يدعوا هذه الدعوة في زنزانته الموجود في قبو القصر حتى الثلث الأخير من الليل ، فسمع صياحاً وصراخاً في قصر الخليفة، فلما سأل الإمام عن سبب هذا الصراخ، قالوا له :

- لقد مات الخليفة (المأمون) .

ولكن الأحوال لم تتغير كثيرا فالخليفة (المعتصم) ورث نفس الأفكار والمذاهب التي أوصاه بها الخليفة (المأمون) ، وصدر الأمر بسجن الإمام (أحمد) ،ولما مثل الإمام أمامه نظر إلى الخليفة (المعتصم) وقال له في قوة :

- رب السجن أحب إلى مما يدعونني إليه .

وظل الإمام في السجن ثمانية وعشرين شهراً حتى صباح يوم ، جاءوا بـ (احمد بن حنبل) إلي المعتصم وحوله جماعة من الناس وقد ثقلت عليه القيود فأمره (المعتصم) بالجلوس وقربه منه ثم قال له :

- تكلم يا إمام انا نسمعك .

فنظر الإمام (للمعتصم) ومن حوله وقال :

- إلى ما دعا ابن عمك رسولُ الله ؟

فقال المعتصم :

- إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

فقال (احمد بن حنبل) براحة :

- فأنا أشهد أن لا إله إلا الله.

ثم اردف :

- إن جدك عبد الله بن عباس قال لما قدم وفد عبد القيس على النبي سألوه عن الإيمان بالله وحده قال : « أتدرون ما الإيمان؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تعطوا الخمس من المغنم»

ثم سأل الخليفة :

- فلم تصنع بي ذلك؟!

قال (المعتصم) :

- لولا أني وجدتك في يدي من كان قبلي ما عرضت لك .

ثم قال (المعتصم) للجالسين حولهما ناظروه .

فقال له كبيرهم :

- ماذا تقول في القران ؟

فأجابه :

- ماذا تقولون أنتم في علم الله؟

فسكتوا

فقال (أحمد بن حنبل) :

- القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله .

فقالوا فيما بينهم ما قالوا حتى قام احدهم وقال :

- يا أمير المؤمنين كفرك وكفرنا .

فلم يلتفت (المعتصم) إلى قولهم ثم قال :

- يا (أحمد) تكلم ولا تخف .

فقال الإمام :

- والله يا أمير المؤمنين، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع .

فقال له المعتصم :

- ما تقول في القرآن؟

فقال :

- كلام الله، قديم غير مخلوق، قال الله عز وجل: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله).

فاعتدل (المعتصم) وقال له :

- هل عندك حجة غير هذا ؟

فقال بثقة :

- نعم يا أمير المؤمنين. قول الله عز وجل: (الرحمن علم القرآن) ولم يقل: الرحمن خلق القرآن، وقوله عز وجل: (يس ، والقرآن الحكيم). ولم يقل: يس ، والقرآن المخلوق ،

فاستقر كلامه في قلب المعتصم ولكنه قال :

- احبسوه وغدا نكمل .

وفى الصباح أقبل (المعتصم) وجلس على كرسيه ، فقال :

- هاتوا (أحمد بن حنبل) .

فجيء به. فلما وقف بين يديه قال له (المعتصم) :

- كيف كنت يا (أحمد) في محبسك البارحة؟

فقال (الإمام أحمد) :

- بخير والحمد لله، إلا إني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمرا عجبا .

الأولياء

قال له (المعتصم) في فضول :

- وما رأيت؟

قال :

- قمت في نصف الليل فتوضأت للصلاة، وصليت ركعتين. فقرأت في ركعة (الفاتحة) و (قل أعوذ برب الناس) وفي الثانية (الفاتحة) و (وقل أعوذ برب الفلق) ثم جلست وتشهدت وسلمت. ثم قمت فكبرت وقرأت (الفاتحة) وأردت أن أقرأ (قل هو الله أحد) فلم أقدر. ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر. فمددتُ عيني في زاوية السجن، فإذا القرآن مُسجّى ميتا، فغسلته وكفنته، وصليت عليه ودفنته.

فقال له المعتصم بغضب من سخريته :

- ويلك يا (أحمد)، أوا يموت القرآن ؟

فقال له (أحمد) :

- فأنت كذا تقول: إنه مخلوق، وكل مخلوق يموت.

فقال (المعتصم) زاعقاً من المفاجأة:

- قهرنا أحمد، قهرنا أحمد .

فقال ابن أبي دؤاد وبشر المريسى (وزيرا المعتصم) :

- اقتله حتى نستريح منه .

فقال (المعتصم) :

- إني قد عاهدت الله ألا أقتله بسيف ولا آمر بقتله بسيف.

فقال له (ابن أبي دؤاد) :

- اضربه بالسياط

فقال (المعتصم) :

- نعم أحضروا الجلادين .

فقال (المعتصم) لواحد منهم :

- بكم سوط تقتله؟

فقال الجلاد :

- بعشرة يا أمير المؤمنين .

فقال :

- خذه إليك .

فأخرج (أحمد بن حنبل) من ثيابه. وائتزر بمئزر من الصوف، وشُد في يديه حبلان جديدان. وأخذ الجلاد السوط في يده. وقال :

- أأضربه يا أمير المؤمنين .

فقال (المعتصم) :

- اضرب .

فضربه ســـوطا. فقال أحمد: الحمد لله. وضربه ثانيا. فقال: ما شاء الله كان. فضربـــه ثالثا، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلما أراد أن يضربه الســـوط الرابع ، تقدم إليه (ابن أبي داؤد) وقال له :

- يـــا (أحمد) ، قل في أذني: إن القـــرآن مخلوق، حتى أخلصك من يد الخليفة .

فقال له الإمام :

- يا (ابن أبي داؤد) ، قل في أذني: إن القرآن كلام الله غير مخلوق حتى أخلصك من عذاب الله عز وجل .

فلما سمع المعتصم قوله قال :

- أدخلوه الحبس .

وأرسلوا له عمه (إسحاق بن حنبل) فقال له :

- يا بني لم لا تجيبهم إلى القول بخلق القرآن تقاة لشرهم ؟

فقال أحمد :

- إذا سكت العالم تقية ، والجاهل يجهل ، فمتى يظهر الحق ؟ يأتوني بآية من كتاب الله وأنا أجيبهم ، يا عماه إني لا أبالي بالحبس ، فما هو و منزلي إلا واحد ، ولا قتلا بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط ، وأخاف أن لا اصبر فأوافقهم .

فقال أحد السجناء :

- لا عليك يا (أبا عبد الله) ، فما هما إلا سوطان ، ثم لا تدرى أين يقع الباقي .

ظل الإمام على حاله في السجن حتى أرسل له الخليفة (المعتصم) فذهب إليه فقال :

- يا (أحمد) أمازلت عند قولك ؟

فقال الإمام :

- أمازلت أنت عند قولك ؟

فأشار (المعتصم) إلى (ابن أبي داؤد) وقال له :

- أجبه .

فقال (ابن أبى داؤد) :

- نعـــم مازلنا نقول أن القرآن مخلـــوق والله قد قال : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» والقرآن أليس هو شيء ؟

قال أحمد :

- قال الله : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَـــيءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا « فهل دمرت إلا ما أراد الله ؟ قد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها ، كمنازلهم ، ومساكنهم، والجبـــال التي بحضرتهـــم ، فأتت عليها تلك الريـــح ولم تدمرها ، وبالرغم من ذلك قال : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَـــيءٍ» .

ثم أكمل قائلا :

- يا (ابن أبى داؤد) هذا شـــيء عـــلَـــمِـــــَه رسول الله صلى الله عليه وســـلم و(أبو بكر) و (عمر) و (عثمان) و (عليّ) ، أم شـــيء لم يعلموه؟

قال (ابن أبي داؤد) :

- شيء لم يعلموه .

فقال الإمام :

- ســـبحان الله! شيء لم يعلمه النبي ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليّ، عـــَلـــِمـــْتـــَه أنت؟!

فبهت (ابن أبى داؤد) وقال فى تلجلج :

- بل علموه ولكن ســـكتوا عنه ولم يحدثوا الناس به فلقد كان الناس

حديثو العهد بالإسلام .

فقال الإمام :

فهلا وســـعـــك ما وسعـــهم من السكوت؟!

فلما سمـــع (المعتصم) قول الإمام (أحمد) أمر بالعفو عنه وأن يحمل إلى منزلـــه وندم (المعتصم) على جلده للإمام (أحمد) ، وأرســـل إليه من يتابـــع خبر معافاته من آثار ما فعل به، حتى صح الإمام (أحمد) وبرئ .

شـــاء الله أن ينتقم للإمام في حياته لا بعد مماته، فلقد رأى بعينه ابن أبـــي دؤاد بعد أن عزله المتوكل وجرده من مناصبه، بل وأخذ كل أمواله وردها إلى بيت المال، وابتلى الله هذا الرجل بمرض خطير، بمرض الفالج، حتى كان يعيش ميتاً بين الأحياء .

وكانوا الناس يقولون :

- أنه حبس الإمام في السجن ، فحبسه الله في جلده .

***

على الكِتاب الحقيقي أن يُحرك الجراح ، بَل عليه أن يتسبب فيها ،
على الكِتاب أن يُشكل خَطراً»

المصادر

- القرآن الكريم .
- السنة النبوية .
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء : للحافظ أبى نعيم الأصفهاني .
- سير الأعلام : محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .
- الكامل في التاريخ : أبن الأثير .
- البداية والنهاية : أبن كثير .
- عبد الله بن سبأ دراسة وتحليل : الشيخ على آل حسن .
- حادثة الأفك ومنهج المواجهة .
- كتاب الانتصار والرد على بن الراوندى : ابى الحسين عبدالرحيم المعتزلي .
- الإصابة في تمييز الصحابة .
- شرح الأخبار .
- الثقات : لابن ابى حاتم .

الأولياء

- صفوة الصفوة :
- وفيات الأعيان : لابن خلكان .
- تذكرة الحفاظ : الذهبي .
- الطبقات الكبرى : محمد بن سعد البغدادي .
- السـراج الطوسـي اللمع في التصوف : تحقيق دكتور عبد الحليم محمود .
- أخبار الحلاج : ابن باكوية .
- ديوان الحلاج .
- تنقيح المقال في أحوال الرجال « للمامقاني، (ط طهران) .
- المقالات والفرق : تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور فيروي .
- طاغية بنى أمية في الميزان : منصور عبد الحكيم .